المبحث الثالث

المديح النبوي

ومن الشعر في المديح لملك أو وزير أو قائدٍ أو أمير ، ندلف إلى شعرٍ يرتفع بالمديح فوق هؤلاء ، فيأخذ بالصُّور والمعاني والألفاظ إلى عالمٍ أسمى تعجز فيه الأقاويل الشعريَّة عن مداناة قامةِ الممدوح وفضائله ، لأنه في رسول الله ﷺ ، فلن يصلَ شاعر مهما بلغ من الإجادة أن يفي بمدح من مدحه الله تعالى وقال فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤) ، ولكن هذا الشعر لم يكن كما هو الحال في صورته في مدحِ غير الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنَّه كان تقرُّباً وتوسُّلاً ، ورغبةً في العطاء الأسمى ، والنوالِ الأعلى من الله عزّ وجلّ ، ثم الشفاعة من الرسول عليه أفضل الصلاةِ والسلام .

وقد ظهرت قصيدة المدح النبوي مع بدايات الدعوة وكانت في طورها الأوَّل دفاعاً عن الرسول ﷺ ، وإعلاءً لقيم الإسلام وتعاليمه ، وتناول مدح الرسول ﷺ شعراءُ كثر[1] .

---

(١) ومنهم الأعشى ـ الذي لم يسلم ـ بقصيدته التي أولها :

ألم تغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمَدَا وعادكَ ما عادَ السَّليم المسهَّدا

ومنهم ـ من المسلمين ـ حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن زهير ، وغيرهم رضي الله عنهم . انظر ديوان الأعشى ، ص١٠٠ .

والأعشى أدرك الإسلام في آخر عمره ، ورحل إلى النبي ﷺ ليسلم ، فقيل له : إنه يحرم الخمر والزنا ، فقال: أتمتع منهما سنةً ثم أسلم! فمات قبل ذلك بقريةٍ باليمامة ، وقالوا : إن خروجه يريد النبي ﷺ في صلح الحديبية فخرج إليه سفيان بن حرب يبغِّض إليه الإسلام ويغريه بالمال ، حتى جمع له من قريش مائة ناقة حمراء ، فانصرف فلما صار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فقتله ، انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٣٥ .

واستمرَّت قصيدة المديح النبوي إلى ما بعد وفاتِهِ عليه الصلاة والسلام ونضجت ،وكان لها في الأندلس أهميَّة روحيَّة تعاظمت جرَّاء الوضعِ السياسي العام الذي كثرت فيه الفتن والاضطرابات ((ولعلَّ بيئةً لم تكثر من المدائح النبويَّة كما أكثرت الأندلس ،وخاصَّةً في عصورها الأخيرة ، لأنَّها كانت تتخذ منها مدداً روحيًّا في مقاومة الأسبان المسيحيين ،وكان الشَّعب يكثر من حفظها وتلاوتها وتلاوة الأناشيد الصوفيَّة ، وأشعار الزهد . . .)) [1] ، وكلَّما ازدادت هذه الفتن والقلاقل ، ازداد التعلُّق الروحي بالرسول ﷺ ، والانشداد إلى عالمٍ نقيٍّ صافٍ يمثله الدين الإسلامي في وقت وجوده عليه الصلاة والسلام ، ولذا وجدنا المدائح تزدهر مع كثرة تساقط المدن والدويلات في الأندلس ، ((وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذي أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة ، ممَّا جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس)) [2]، وقد ازدهرت قصيدة المديح في الأندلس أيضاً ، في عهد الموحدّين ، ((وكان وراء ازدهار الشعر الديني بواعث عديدة ، لعلَّ أهمَّها يكمن في تلك المحن السياسيَّة والاجتماعيَّة التي تعرَّضت لها الأندلس في هذا العصر ، بالإضافة إلى الطابع الديني الذي كانت عليه دولة الموحدّين والذي أسهم في نموّ بعض الموضوعاتِ الدينيَّة كالزهد)) [3]، وكان المديح النبويّ بما فيه من انشدادٍ روحي وتعلّق بالرسول الكريم ﷺ ، يقوى في الأندلس ، مع قوّة

-- وهذه القصيدة أدخله بها أبو العلاء المعري الجنَّة في رسالة الغفران على أن لا يشرب فيها خمراً ، انظر : رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، ص٧٠ .

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور ، دكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧م ، ص١٩٢ .

(٢) عصر الدول والإمارات ، الأندلس ، دكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، إيداع رقم ١٩٨٩/٣٨٧م ، ص٣٧٠ .

(٣) في الأدب الأندلسي ، دكتور فوزي عيسى ، دار المعرفة الجامعيَّة ، الأسكندريّة ، ٢٠٠٦م ، ص٧٩ .

الخطر النصراني ، والفتن والقلاقل الداخليَّة ((إذ اتخذه الشُعراءُ الأندلسيُّون أداةً للاستغاثةِ والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم)) [1] ، يقول لسان الدين بن الخطيب معرّضاً بحال الأندلس[2] :

ماذا يكونُ جوابُكم لنبيِّكم	وطريقُ هذا العذرِ غيرُ ممَّهدِ
إن قال لمْ فرَّطتمُ في أمَّتي	وتركتموهم للعدوِّ المعتدي
تاللهِ لو أنَّ العقوبةَ لم تُخِفْ	لكفى الحَيا من وجهِ ذاكَ السَّيدِ

وقد حفِل الشعر الأندلسيّ في أطواره المختلفة ، بقصائد كثيرةٍ في المديح النبوي ، وعُرف به كثير من الشعراء ، ومنهم : ابن الجنَّان الشاطبي (ت سنة : ٦٥٠هـ) [3]، أبو الحسن الششتري (ت سنة ١١١٤م) [4]، عبد العزيز القشتالي ، وغيرهم كثير ، وأنشدَ في المديح النبوي كثيرٌ من شعراء الأندلس ممَّن لم يشتهروا به كابن سهلٍ وغيره .

وقصيدةِ المدح النبوي في الأندلس ، كانت قد تُنظمُ في مناسباتٍ معينة كالموالد النبويَّة التي كان يقيمها بعض الخلفاء في العصور المتأخرة ، وغير ذلك من مناسباتٍ دينيَّةٍ مشهورةٍ أو خاصَّةٍ بالشاعر المادح ، ومتعلّقةٍ بدواخل نفسه ، وسواءً كان هذا المديح في مناسبةٍ خاصَّة أو عامَّةٍ أو دون مناسبة ، فإن هذا الشّعر يتطهَّر من المهاوي النفسيَّة للرغباتِ الدنيويّة ، ويأخذ القصيدة إلى

---

(١) عصر الدول والإمارات ، الأندلس ، دكتور شوقي ضيف ، ص٣٧١ .

(٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٦/١٦٦ .

(٣) انظر : ديوان ابن الجنان الأنصاري الأندلسي ، شاعر المديح النبوي بالأندلس في القرن التاسع الهجري ، تحقيق : دكتور منجد مصطفى بهجت ، جامعة الموصل ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م .

(٤) انظر : ديوان أبي الحسن الششتري ، شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب ، تحقيق . دكتور علي سامي النشارة ، منشأة المعارف ، الإسكندريَّة ، ط . الأولى ، ١٩٦٠م .

منحى تسمو فيه الروح وتتعالى أصوات الترنيمات التي تتغنّى بعالمٍ نقيّ طاهرٍ بريء ، وجد الشعراءُ صورته في البداوة ((لأنَّ كل المثيرات التي استفزّت الشاعر ودفعته إلى ترجمة أحاسيسه إنَّما هي مثيرات تغلفها الجلالة والرَّهبة ، وتحيط بها هالة من الإشعاعات القدسيَّة السَّامية وهنا لا يجد النفاق أيَّ مساحة أو مجالٍ لظهور ...))[1].

فقد انتقل في هذا الشعر العالمُ البدويُّ الساحر المثاليّ في صورة صحراءَ نقيَّةٍ طاهرة ، وسماءَ صافية ، ونسائم الصَّبا والنعامى ، وروائح الشيح والخزامى ، وقطعان المها ، وجماعاتِ القطا ، وبدويَّاتِ المرعى والغدير ، وإبلٍ تهملج بهوادجها وحمولها ، يسوقها الحادي يمرُّ بها كثبان نجد ، وروابي تهامة ، ومياه الحجاز ، قوافل تسري بليلٍ مدلج تنشدُ انبلاج الصباح ، عالمٌ روحيٌّ فطريّ ساحر ، نقيٌّ نقاء الطفولة ، يرسمه الشاعر الهائم في ظلماتِ الدنيا ، ومدلجات الهموم ، يطوف به في عرصات النفس ينشد بهذا الشعر الخروج من ضلالاتها ، ويتوقُ إلى التوبةِ أو القربى ، وإشراقِ ضياءٍ روحيّ يطّهر النفس ، فيتوضَّأ بالشعر ويغتسل ، وقد كانت الصُّورة البدويَّة معادلة في الموروث والذهن والثقافة والتاريخ العربي ، للعالم المثالي الذي تتجلَّى فيه أعلى مستويات الصِّدق والطهر والبراءة ، ومن هنا التقى الشبيه بمشابهه ، وأصبح المديحُ النبويُّ الذي ينشد به الشاعر صفاءً روحيًّا ، ينشدُّ دون قصدٍ أو بقصدٍ إلى المكان البدويّ ، والحبيبةِ البدويَّة ، والرحلة البدويَّة .

وأكثر ما تظهر البداوة في مقدمات قصائد المديح النبويّ ، التي تشتملُ على النسيب البدوي وذكر الأماكن الحجازيَّة والنجديَّة ، والأطلال ، ووصف الرّحلة والرواحل ، وما إلى ذلك ، من عناصر بدويَّة تقرّبُ الشعر إلى الديار التي احتضنت طفولة الإسلام ، وقوَّته ، ومولد النبوّة ، وقبر المصطفى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) وصف البيت الحرام في الأدب العربي ، دكتورة سعاد محجوب ، ص٢٣٨.

وقد استلهم الشعراءُ الأندلسيُّون في المدائح النبويَّة صورة الطلل البدويَّة ، ووقوف الشعراء الجاهليين عليها ، وتلدُّدهم بالديار ، فعاجوا على الحرم الشريف ووقفوا عليه ، وحيَّوا نسائمه ، وذكروا آرامه وجآذره وحسانه ، وخلعوا عليه من وصفِ البدو لأطلالهم وموطن ذكرياتهم ، وأحبائهم ، وصباباتهم ، فمن ذلك قصيدة مدح نبويَّة للقاضي عبد العزيز القشتالي ، يقول فيها[1]:

قِفْ بالمطيِّ على الحمى المأمونِ ... واعكفْ على حرمٍ هناكَ أمينِ[2]

وانشرْ لديه تحيَّةً أودعتها ... جيبَ النَّسيمِ بسرِّها المكنونِ

حمَّلته منها لطائمَ مسْكِهَا ... يُزري بطيبِ المسكِ من دارينِ[3]

يسري إلى بلدٍ عهدتُ بأرضها ... آرامُها تسطُو بأسدِ عرينِ

وبظهرِ زاويةٍ جآذرُ أتْلَعَتْ[4] ... فوقَ الرُّبا أجيادَ حورِ العينِ

هيفُ القدودِ جُبِلْنَ من بانِ الحمى ... علقت بها الكثبانُ من يبرين[5]

فوقف الشاعر على الحمى والحرم ، وقوفَ الجاهليين على الطلل ، غير أنه لم يذكر بكاءً ودموعاً ، لأنَّ السياق مختلف ، بل ذكر النسيم وهو دليلُ الشوق ، والمسك وهو دليل الانتشاء الروحي ، وضمَّ إلى ذلك ما يكون في الديار من الجآذر والآرام فشبه بها النساء وخصّ بالتشبيه من الظباء أعناقها حين تمدُّها ، وعيونَها ، ممَّا هو ملفت في جمال الظباء ، وضمَّ إليه وصفَ القدود وهيفَها ، وثقل الأرداف التي شبهها بالكثبان ، وذِكْرُ النساءِ في سياق الحديث الإيماني

---

(١) ديوان عبد العزيز القشتالي ، ص٤٤١ .

(٢) الأمين : الأمن ، يعني مكة ، انظر : اللِّسان ، مادة (أمن) .

(٣) دارين : فُرْضة بالبحرين يجلب إليها المسكُ من الهند ، والنسبة إليها داريٌّ ، انظر : معجم البلدان ، ٤٣٢/٢ .

(٤) أتلعت : أظهرت عنقها الطويل ، انظر : اللِّسان ، مادة (تلع) .

(٥) يبرين : بالفتح ثم السكون ، وكسر الراء ، وياء ثم نون ، هو رملٌ لا تدرك أطرافه من يمين مطلع الشمس إلى حجر اليمامة ، وقيل بأعلى بلاد بني سعد ، وهو أيضاً من أصقاع البحرين ، انظر : معجم البلدان ، ٤٢٧/٥ .

أراد به وصف ما يبعثُ العين على التأمُّل في جمال هذا الحمى ، فذكر ما يوافق الفطرة الإنسانيَّة ، من حبِّ المرأة ، ووصف حسنها .

وقد كان الشعراء الأندلسيُّون وغيرهم ، يمدحون نعلَ المصطفى ﷺ ، وقد يستحضر الشاعر الأندلسيّ صورة الطلل البدويَّة في هذا الغرض ، ويستلهم منها وقوف العاشقين البدو على أطلال من يحبُّون ، وفي ذلك يقول ابن الأبَّار[1]:

إن شاقني ذاكَ المثالُ فطالما ... شاقَ المحبَّ الطيفُ يطرقُ في الكرى

لي أسوةٌ في العاشقين وقصدُهم ... لثمَ الطلولِ لأهلهنَّ تذكُّرا

وبكائهم تلك المعاهدِ ضلَّةً ... تحتَ الظلامِ على الغرامِ توفُّرا

أفلا أُمرِّغ فيه شيبي راشداً ... وأريقُ دمعي وسطهُ مستبصِرَا

فهنا يستبدل ابن الأبَّار بالوقوف على الطلل ، وبكاء العشاق ، الوقوفَ على هذا المثال ، وسكبَ العبراتِ حبّاً للرسول ﷺ .

وقد استهلَّ الشعراء الأندلسيُّون مدائحهم النبويَّة بوصف الطلل البدويّ الذي بكى أهلَه الشعراء ، لأن فيه حنيناً شديد الصِّلةِ بالدِّيار والمعاهد التي احتضنت حبَّ الشاعر وأوليَّات الصبابة ، ولذا ألبسوها من معاني الوجد الروحيّ التي تحنُّ إلى مكان المصطفى عليه الصلاة والسلام وتصبو إليه ، ومن ذلك مقدّمة مدحةٍ نبويَّة لعبد الله بن الخطيب ذكر فيها من عناصر البداوة حداة الحمول ، وانهمال الدموع على الديار ، وحنين العشار ، ومناداة سعد وهو حذو أسلوبٍ بدويّ ، فقال[2] :

بحقِّ الهوى يا حداةَ الحمولِ ... قفوها قليلاً بتلكَ الطلولِ

معاهدُ مَرَّت عليها السحابُ ... ببرقٍ خفوقٍ ودمعٍ همولِ

أحنُّ إليها حنينَ العشارِ ... وأبكي عليها بشجوٍ طويلِ

فيا سعدُ عرِّج عليها الرِّكابَ ... ففيها لقلبي شفاءُ الغليلِ

---

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص٤٦٢ .

(٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٧/٢٩٠ .

سـقاها مـن المـزنِ صـوبُ الغمـامِ وحيَّـا بعـرفِ النسـيمِ العليـلِ

وهي قصيدة طويلة تكثر فيها العناصر البدويَّة العذريَّة من وصف وميض البرق : ((وممَّا شجاني وميضٌ خفوقٌ))[1] ، وسهر الليالي : ((فبتُّ أطاولُ ليل التَّمام))[2] ، وسفح الدموع : ((ودمعٌ يساجلُ دمعَ الغمام))[3] ، وفيها يرتحلُ على العادة الجاهليّة البدويَّة ، ولكنَّه يستبدل بالغايات الدنيويَّة الجاهليَّة غاياتٍ أسمى ، وأعلى ، وأطهر وأنبل ، هي غاياتٌ روحيَّة ألبس الشاعر فيها رحلتَه معاني النَّقاء والصفاء ، فقال[4] :

في ذمَّـةِ اللهِ ركـبٌ سَـرَوا يجـدُّون والليـلُ مرخـي السـدولِ

وفيها[5] :

يؤمّـون بـالعيسِ أمَّ القـرى وقـبرَ النـبي الشـفيعِ الرسـولِ

وفيها يخاطب الحادي ، ويذكر القلاص ويشبهها بالسفن ، ويذكر الحمى والحزون ، والسهول ، فيقول[6] :

فيـا حـاديَ العـيسِ يطـوي الفـلا بوخدِ[7]القلاصِ[8] ونصٍّ[9] الذَّميلِ[10]
سـفائنَ آلِ طواهَـا السُّـرى وشقُّ الحـزونِ[11] وقطـعُ السُّـهولِ
نشـدتكَ بالبـانِ بـانِ الحمـى وبـالمورِدِ العـذبِ والسَّلسَـبيلِ

---

(١) تفح الطيب ، المقّري ، ٢٩٠/٧ .

(٢-٦) المصدر السَّابق ، ٢٩١/٧ .

(٧) الوخد : ضرب من سير الإبل ، وهو سعة الخطو في المشي ، انظر : اللِّسان ، مادة (وخد) .

(٨) القلاص : الإبل الفتيّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلص) .

(٩) النصّ : السير السريع الشديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نصص) .

(١٠) الذميل : ضرب من سير الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذمل) .

(١١) الحزون : الجبال الغلاظ ، انظر : اللِّسان ، مادة (حزن) .

إلى أن يصل طيبة (إذا ما حللت لدى طيبة)[1]، ثم يقول[2] :

فـــابلغ تحيّـــةَ صـــبٍّ مشـــوقٍ عدتـــهُ عـــوادي الزمـــانِ الخـــذولِ

وهي قصيدة احتشدت فيها عناصر بدويَّة عدَّة ، منها : الوقوف بالديار ، والبكاء ، ووصف الحنين ، ومناداة سعد ، وذكر العيس ، ووصف القلاص . . . وغير ذلك ، كلُّها وجَّهها الشاعر بدلالاتها القديمة على الشوق والحنين ، إلى دلالة روحيَّة في الشوق للرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد كثر في المدائح النبويَّة وصف الرحلة البدويَّة إلى مركز السلطان الديني والوحي الإلهي ،وترسَّم الشعراءُ الأندلسيُّون في تصويرهم لها خُطى الجاهليين التي أبانوا بها عن رغبتهم في التخلُّصِ من الهمّ ، أو اللحاقِ بالمحبوبة ، أو السعي للأفضل وغير ذلك من أمور الحياة .

إلاَّ أنَّ الرحلة النبويَّة كانت أسمى غرضاً وأنبلَ قصداً ، لأن فيها تخلُّصاً من همومِ الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وسعياً إلى الجنَّةِ وفوزاً بزيارة قبر الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاةِ وأتمَّ التسليم ، ولذا جللُّوا الشعر النبويّ بغطاءٍ نورانيّ ، يصف رحلةً للروح ، قد يكون الشاعر الأندلسيّ قام بها ، أو تخيَّلها أو ودَّع أصحابها .

وسواءً كانت الرحلة خياليَّة أو حقيقيَّة ، فإن الشعراء اتخذوا منها في قصائد المديح النبويّ ، وعاءً بدويًّا ، لواحةٍ روحيَّة ، يهربُ فيها الشاعرُ من الحضارةِ والترفِ واللَّهو إلى عالم الفطرةِ القديم ، تقوده في هذه الرحلة قوافل أجداده البدو ، ولا يحملُ من الزاد إلاَّ ثقته بما عند الله تعالى من الخير ، يقول القشتالي في مقدّمةِ مدحةٍ نبويَّة ، يصف ارتحال الظعائن[3] :

هُمْ سلبونـــي الصبرَ والصبرُ من شَـــانِي وهم حرمُوا من لذَّةِ الغمـــضِ أجفـــانِي

(١،٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٢٩٢/٧ .

(٣) ديوان عبد العزيز القشتالي ، ص٤٢٠ .

وهم أخفرُوا في مهجتي ذممَ الـهـوى فلم يُثْنِهمْ عن سـفكِهَا حبّـيَ الجـانِي
لئن أترعُوا من قهـوةِ الـبينِ أكؤسـي فشـوقُهُم أضـحى سمـيري ونـدماني
وإن غـادرتني بـالعراءِ حمـولُهم لقًى[1] إنَّ قلـبي جاهـدٌ إثـرَ أظعـانِ

ويطول وصف هذه الرحلة عند القشتالي فتمتدُّ إلى ما يقرب من الثلاثين بيتاً ، يبرِّر هذا الطول أنَّه يبسط فيها القول ، ويجعلُ منها معرضاً لإظهار مشاعره الروحيَّة تجاه تلك المعاهد التي يتمنى زيارتها .

واللافت في هذه المقدّمة كثرة الأماكن البدويَّة التي يمرُّ بها الركبان في مسيرهم للحَجّ أو الاعتمار ، ويقترب بذلك من طريقةِ جدّه زهير في وصف مسير الحمولِ والأظعان ، والأماكن التي مرَّت بها الحدوج ، يقول[2] :

قف العيسَ واسأل ربعَهم أيَّـةً مضـوا أللجزعِ[3] ساروا مـدلجين أم البـانِ[4]
وهل باكروا بالسَّفحِ من جانبِ اللّوى[5] ملاعـبَ آرامٍ هنـاك وغـزلانِ
وأين استقلُّوا : هل بـهـضبِ تُهامة[6] أناخوا المطايا أم على كثـبِ نعمـانِ[7]
وهل سـال في بطـنِ المسـيلِ تشـوُّقا نفوسٌ ترامتْ للحمـى قبـلَ جثمـانِ

---

(١) لقًى : أي مُلقى على الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (لقا) .

(٢) ديوان القشتالي ، ص٤٢١ .

(٣) الجزع : منعطف الوادي ، انظر : اللِّسان ، مادة (جزع) .

(٤) البان : موضع عن يمين طريق المصعد من الكوفة ، انظر : معجم البلدان ، ١/ ٢٣٢.

(٥) اللّوى : بالكسر ، وفتح الواو والقصر منقطع الرمل ، وهو أيضاً موضع بعينه ، وهو وادٍ من أودية بني سليم ، انظر : معجم البلدان ، ٥/ ٢٣ .

(٦) تهامة : تساير البحر ومنها مكّة ، وتهامة إلى عرق اليمن إلى أسياف البحر إلى الجحفة وذات عرق ، وسمّي الحجاز حجازاً : لأنه حجز بين تهامة ونجد ، انظر : معجم البلدان ، ٢/ ٦٣ .

(٧) نعمان : بالفتح ثم السكون ، وادٍ ينبتُ الأراك ، وقيل وادٍ لهذيل يُجلب منه العسل ، وهو أيضاً وادٍ قريب من الفرات ونعمان أيضاً قرب البادية من ناحية الكوفة ، انظر : معجم البلدان ، ٥/ ٢٩٣ .

وإذْ زجرُوهَا بالعشيِّ فهل ثنى أزمَّتها الحادِي إلى شعب بَوَّانِ[1]

وهل عرَّسُوا في ديرِ عبدونَ[2] أم سرُوا يؤمُّ بهم رهبانُهم ديرَ نجرانِ[3]

ثم وصفَ القباب التي تلاحت نوراً ونجوماً[4] :

وأدلجَ في الأسحارِ بيضُ قبابهم فلُحنَ نجوماً في معارجِ كثبانِ

والقشتالي ذكر أماكن كثيرة ، وطرق قوافل متعددة من أماكن مترامية ، تؤمُّ حمًى واحداً ، فهي أفئدةٌ تهوي لا ركبانٌ تسير ، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [5] ، والشاعر بعد أن حشد هذه الأماكن ، عاد وفضَّل المكان المقدَّس ، بالمقولة البدويَّة المشهورة

---

(١) بوَّان : بالفتح وتشديد الواو ، وألف ونون ، في ثلاثة مواضع ، منها شعب بوّان بأرض فارس ، وهو أحد متنزهات الدنيا ، وبوَّان أيضاً وادٍ بين فارس وكرمان ، وبوَّان أيضاً قرية على بابِ أصبهان . انظر : معجم البلدان ، ٥٠٣/١ .

(٢) دير عبدون : هو بسرَّ من رأى وسمِّي بدير عبدون ، لأن عبدون أخا صاعد بن مخلد كان كثير الإلمام به ، والمقام فيه ، فنسب إليه ، وكان عبدون نصرانيًّا ، وأسلم أخوه صاعد ، على يد الموفَّق واستوزره . انظر : معجم البلدان ، ٥٢١/٢ .

(٣) دير نجران : في موضعين : أحدهما باليمن ، وأحدهما بدمشق ببصرى ، وهو ديرٌ عظيم عجيبُ العمارة ، انظر : معجم البلدان ، ٥٣٨/٢ .

(٤) ديوان القشتالي ، ص٤٢٢ .

(٥) قال ابن عبَّاس في تفسير قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم:٣٧) ، قال ابن عبَّاس : لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فاختُصَّ به المسلمون .

مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٢٤هـ ، ص٢٣٩ .

((مرعى ولا كالسعدان))[1] ، وجعل الرحلة إليه قصيرةً كالخطوة الواحدة ، لهوى النفس الذي يجعل الشوق يقطع الطريق ويُنسي التعبَ ، فقال[2] :

لك اللهُ من ركبٍ يرى الأرضَ خُطوةً إذا زمَّها بُدْناً نواعمَ أبدانِ
أرِحْهَا مطايَا قد تمشَّى بها الهوى تمشِّيَ الحُمَيَّا[3] في مفاصلِ نشوانِ
ويمِّم بها الوادي المقدَّسِ بالحمى به الماء صَدًّا[4] ، والكلا نبتُ سعدانِ

وتطول القصيدة ، ويعلو فيها النغم البدويّ ، من الترنُّم بذكر نباتات البادية الرند ، والبان ، وشيح يثرب ، وعرار نجد[5] ، يقول[6] :

وأذكرني نجداً وطيبَ عرارِه نسيمَ الصَّبا من نحو طيبةَ حيَّاني
أحنُّ إلى تلك المعاهدِ إنَّها معاهدُ راحاتي[7] ورَوحي[8] ورَيحاني[9]

---

(١) قال بعض الرواة : السعدان ، أخثر العشب لبناً ، وإذا خثر لبن الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم ، ومنابت السعدان السهول ، وهو من أنجع المراعي في المال ولا تحسن على نبتٍ حسنتها عليه ، قال النابغة :

الواهب المائة الأبكارَ زينها سعدان توضح في أوبارها اللبد

يضرب مثلاً للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٢٧٦/٢ .

(٢) ديوان القشتالي ، ص٤٢٢ .

(٣) الحميَّا : بلوغ الخمر من شاربها ، ودبيب الشراب في جسده ، وإسكارها له ، وأخذها برأسه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حما) .

(٤) صدًّا : صَدآء عين عذبة أو بئر ، ليس عندهم ماء أعذبُ من مائها ، وفي المثل ماء ولا كصَدآء ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدأ) .

(٥) ديوان القشتالي ، ص٤٢٣ .

(٦) المصدر السَّابق ، ص٤٢٤ .

(٧) راحاتي : من الرَّاحة وهي ضدّ التعب ، انظر : اللِّسان ، مادة (روح) .

(٨) رَوحي : الرَّوح بردُ نسيم الريح ، والروح أيضاً الرحمة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ (يوسف:٨٧) ، أي من رحمة الله ، والروح أيضاً السرور والفرح ، انظر : اللِّسان ، مادة (روح) .

(٩) الريحان : كل بقلٍ طيب الريح واحدته ريحانة ، قال تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة:٨٩)، أي استراحة وبرد ، انظر : اللِّسان ، مادة (روح) .

ويلفتنا هنا كيف قرن نجد البدويَّة في الشعور الحنيني بيثرب في الشعور الديني ، وكيف جمع إلى هذا التصوير نسيم الصَّبا الذي يُذكِّرُ الوجد ، وهو حين ذكر من النباتاتِ الشيح والعرار ، ومن النسائم الصَّبا ، جاء بما لاءمَ ذلك وهو الراحة ، والروح ، والريحان ، ممَّا ذكره الله تعالى في قرآنه الكريم في وصف الجنَّة ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة:٨٩) ، فهو هنا يصعِّد الروح إلى السماء ، عندما وجد الراحة في ذكر هذه الأرض أو زيارتها .

وتتضمَّن صورة الرحلة النبويّة البدويَّة ، وصف الرواحل التي تمتاز فيها بالخفّة والإسراع في شوقٍ لا يعتريه نصبٌ ولا وصب ، ممَّا يغلِّف هذا الشعر بغلالةِ الإيمان ، ويجعل من صورة الظعائن والحمول صورة تعبُديَّة ، ومن ذلك قصيدة مدح نبويَّةٍ لابن الجنَّان ، ذكر فيها من الأماكن البدويَّة العُذَيب وبارق ، ووصف في الرحلة طيَّ الإبل لصحراءَ معتدلٌ هواؤها لا قرَّ ولا حرَّ ، وجعل الأشواق حادياً ، وحنين الإبل أهازيجاً ، قال[١] :

تذاكرنَ ذكرى أو تـهـيـجَ اللَّواعجـا فعاجنَ أشـجاناً يكـاثرنَ عالجـاَ[٢]
ركاباً سـرتْ بـين العـذيبِ وبـارق نوايجَ[٣] في تلكَ الشِّعابِ نواعجَـا[٤]
تـيمَّمن مـن وادي الأراكِ منـازلاً فيطـوينَ آلاً في الأراكِ سَجاسـجَا[٥]
لـهـنَّ من الأشواقِ حادٍ فـإن وَنَـتْ حـداةٌ يـرجِّعنَ الحـنينَ أهازِجَـا[٦]
ألا بأبـي تلـك الركـابُ إذا سَـرَتْ هـواديَ يمـلأنَ الفـلاةَ هوادِجَـا

---

(١) ديوان ابن الجنَّان ، ص٧٤ .
(٢) عالج : موضع بالبادية به رمل ، وعالج ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض ، انظر : اللِّسان ، مادة (علج) .
(٣) نواييج : النوجة الزوبعة من الريَّاح ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوج) .
(٤) النَّواعج : البيض من الإبلِ الخفاف الكريمة ، والنعج أيضاً ضربٌ من سير الإبل ، والنواعج السراع ، انظر : اللِّسان ، مادة (نعج) .
(٥) سجَا سجاً : السجسج الهواء المعتدل بين الحرّ والبرد ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجج) .
(٦) أهازجاً : الهزج صوتٌ مطرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (هزج) .

إلى أن قال[1] :

هم في منى أسنى المنى ولدى الصَّفا ... يرجُونَ من أهلِ الصفاءِ مناهجَا

فجاء بوصف : اللواعج والذكرى ، والشجن ، ممَّا دلَّ به على قوَّة الشعور الدِّيني في نفسه ، وذكر في وصف النَّاقة (النوجة ، والنواعج) ، ممَّا دل به على خفتها وسرعتها ، وجاء في وصف الهواء بلفظ (السجسج) الذي يحمل نغماً موسيقيًا عالياً ضمَّ إليه تشبيه الحنين بالهزج ، وهو الصوت المطرب ، فجمع في الصورة معاني الانتشاء والفرح والسعادة والخفَّة ، ممَّا أراد به وصف قوّة عاطفته الدينيّة ، والشوق إلى الزيارة النبويَّة .

ويكثر في الرحلة الحجازيَّة وصف خفَّة المطايا وسرعتها ، وكثيراً ما كان الشاعر يجمع في الوصف الروحي بينه والرواحل لأنَّه ((توحَّدت مهيجات الشوق والحنين بينهما ، فما استفزَّ الشاعر وألهب عواطفه وأثار كوامن أشواقه كان له الأثر نفسه في الناقة ، وممَّا لا شكَّ فيه أن الشَّاعر كان يعبِّر عمَّا يجيشُ بدواخله على لسان حال ناقته . . .))[2] ، ولذلك وصف الشعراء خفَّة الرواحل للزيارة وإنما أرادوا وصف خفَّةِ شوق فاضت في الشعر إلى ما حول الشاعر ، ووحَّدَتهْ بغيره من الكائنات ومنها ناقته التي كثيراً ما كان الشاعر البدويُّ يسامرها ، ويحادثها ، ويحملِّها من كوامن نفسه ، وفي مثل هذه المعاني يقول ابن الجيَّاب[3] :

لمن المطايا في السَّراب سوابحًا ... تفلي[4] الفلاةَ غواديًا وروائحًا

عوجاً كأمثالِ اللّقي[5] ضوامرٍ ... يرمين في الآفاقِ مرمى نازحًا

---

(١) ديوان ابن الجنَّان ، ص٧٥ .

(٢) وصف البيت الحرام ، دكتورة سعاد محجوب ، ص٣٣٢ .

(٣) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ٤/١٣٠ .

(٤) تفلي : تقطع تطلب ما فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (فلا) .

(٥) اللقي : الملقى على الأرض المطروح ، انظر : اللِّسان ، مادة (لقا) .

أو كالسحابِ تسيرُ مثقلةً ... بما حملته من سُقيا البطَاحِ دوالحَا[1]

وقد سرت هذه الخفّة للرواحلِ من الرّكب الذي أمَّ الهدى ، يقول فيه[2] :

ركبٌ يُيمِّمُ غايةً بل آيةً ... أبدت مُحيَّا الحقِّ أبلجَ واضحَا

لمَّا دعَا داعي الرَّشادِ مردِّداً ... لبُّوهُ شوقاً والحمامُ هوادِحَا[3]

وكثيراً ما تظهر صورة الحادي البدويَّة في الرحلة النبويَّة والحدو ((سوق الإبل والغناء لها)) [4] ، فقد كان للصَّوت قوّة تأثير في النفوس ، قال الجاحظ ((وأمرُ الصوت عجيب وتصرفه في الوجوه عجبٌ فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنها ما يسرُّ النفوس حتّى يفرط عليها السرور . . . وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ، قال : إنَّما أبكاني الشَّجا!)) [5] ، ولأجل ذلك ساقوا بالحداء الإبل ، لأن الإبل ((تصرُّ آذانها إذا حدا في آثارها الحادي ، وتزداد نشاطاً وتزيد في مشيها ...))[6].

يقول ابن لبال الشريشي[7] :

متى أقولُ وقد كلَّت ركائبنا ... من السُّرى وارتكابِ البيدِ[8] في البُكَرِ

يا نائمينَ على الأكوارِ ويحكمُ ... شدُّوا المطيَّ بذكرِ اللهِ في السَّحرِ

أما سمعتم بحادينا وقد سَجَعَتْ ... وُرقُ الحمائمِ فوقَ الأيكِ والسَّمُرِ[9]

---

(١) الدوالح : السحب تدلح في مسيرها من كثرةِ مائها فتثقل وسحابة دلوح أو دالح ، مثقلة بالماء الكثير ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلح) .

(٢) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ٤/١٣٠ .

(٣) هوادحا : التهويد ، وهو ترجيع الصوتِ في لين ، انظر : اللِّسان ، مادة (هود) .

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (حدا) .

(٥) الحيوان ، الجاحظ ، ٤/١٩١ .

(٦) المرجع السابق ، ٤/١٩٣ .

(٧) ديوان ابن لبال الشريشي ، ص٨٤ .

(٨) ارتكاب البيد : السير فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (ركب) .

(٩) السَّمُر : شجر الطلح ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمر) .

هذي البشارةُ يا حُجَّـاج قـد وجَبَـتْ غداً تحطُّـون بـين الـرُّكنِ والحجـرِ

وهنا نرى أن الرِّحلة النبويَّة لم تعد رحلة مطايا وإبل تضرب البيد ، وإنما أصبحت رحلة روح ترقلُ بأصحابها مطايا القلب إلى عوالم الصفاء ، ولذا يرتفع في الشعر صوت الحادي بذكر الرسول ﷺ ، الذي يجعل العيسَ تغذُّ السير يسبقها شوقها إليه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، يقول ابن الجيَّاب[1]:

وإذا حَدَا الحـادِي بـذكرِ المصـطفى أذرُوا[2]على الأكوارِ[3]دمعـاً سـابِحَا
عـيسٌ تـهـادى بـالمحبِّينَ الأُلى ركبُوا من العـزمِ المصـمِّمِ جامِحَـا[4]
طـارت بـهـم أشـواقُهم سـبَّاقةً فتـركنَ أعـلامَ المطـيِّ رَوَازِحَـا

ونجد أن الرحلة النبويَّة بدويَّة ، ولكنَّها تتعالى عن أوصاف مشاقِّ الرحلة البدويَّة ، بعيدةٌ عنها ، لأنَّ الغاية أسمى من أن يصف الشَّاعرُ هجيراً ، ولظاً وعطشاً وجوعاً ، ووحشةَ فلاة ، وعزيف جن ، إنه يصف رحلة روحيَّة ، وركباً مدلجاً يخبُّ الصحارى بشوقٍ لنورٍ قلبيٍّ ، يُكسبُ الرحلة قدسيَّة طاهرة ، وهو إن وصف في الرواحل ضموراً ، وإدلاجاً وغؤور عينين ، فإنه لا يريد بهذا الوصف المشقَّة والتعب ، وإنما يريد به شدَّة طلبِ الناقة وشوقها لما تريد الوصول إليه ، وهي زيارة الديار التي فيها قبر المصطفى ﷺ ، فخرج الشاعر بهذه الصفاتِ للإبل من سياقِ التشكِّي إلى سياق السَّعادة بالتعب الجسدي الآني في سبيل راحة روحيَّة .

وقد يكون تركيز الشاعر في الصورة البدويَّة للرحلة النبويَّة على وصف الرَّواحل ، فتكادُ تقتصرُ المقدِّمة على ذلك ، مثل قصيدة نبويَّة للقاضي القشتالي يقول في أوَّلها[5] :

---

(١) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ٤/١٣٠ .
(٢) أذروا : صبُّوا دموعهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذرا) .
(٣) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل ، انظر : اللِّسان ، مادة (كور) .
(٤) جامحاً : مسرعاً ، يقال فرس جموح أي سريع نشيط ، انظر : اللِّسان ، مادة (جمح).
(٥) ديوان عبد العزيز القشتالي ، ص٢٩٧ .

أرخِهَا فقد أودى بـهـن دلـوجُ[١] ودكَّـت رُبَى أكتـادهنّ[٢] حـدوجُ

وتمتدّ الأبياتُ التي يصف فيها الظعائن ومسراها ، فيذكر في صورتها فوّتها وسرعتها ، وغؤور عينيها وصوت هدير فحولها ، وجمال النساء على هوادجها ، يقول في ذلك[٣] :

ظعائنُ خوصُ[٤] العـينِ في فلواتـهـا وفي فقـراتِ ظهـرهنَّ دُمـوجُ[٥]
إذا أطلعتـهـا لـجَّـةُ الآلِ خلتـهـا سفائنَ خضنَ البحـرَ وهـو مَـريجُ[٦]
رمـينَ النَّـوى[٧] لمـا انبعـثنَ باسـهمٍ يرقُّ لـهـا عنـد المـروقِ خـروجُ
وأرزمَ[٨] إرزامَ الرُّعـودُ هـديرُهَا فسدَّ الفجاجَ[٩] الفيحَ[١٠] منـه ضـجيجُ
تحمَّلـنَ مـن آرامِ وجـرةَ للحمـى بدوراً لـهـا بيضُ القباب بـروجُ[١١]

وَوَصْفُ خَوَصِ العينين في المسيرِ أراد به شدَّة إرقالها حتى غارت عيناها تعباً ، والشاعر الأندلسيُّ ذكر من وصف الناقةِ بالتعب (خوص العينين) ولم يأتِ بعد ذلك بما كان يذكره الشعراء الأندلسيُّون ـ على العادة الجاهليَّة ـ من ضرب الناقة حتّى تسرع ، أو وصف شدّة هزالها ، وشكواها الوجى والأين ،

---

(١) دلوج : الدلجة سيرُ الليل كلّه ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلج).
(٢) أكتادهنَّ : الكتد : الكاهل وهو مجتمع الكتفين ، انظر : اللِّسان ، مادة (كتد).
(٣) ديوان عبد العزيز القشتالي ، ص٢٩٧.
(٤) الخوص : ضيق العين وصغرها ، وغؤورها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خوص).
(٥) دموج : إحكام ومدمج ، مُداخل كالحبل المحكم الفتل ، انظر : اللِّسان ، مادة (دمج).
(٦) مريج : قلق ، مضطربٌ ، مختلط ، انظر : اللِّسان ، مادة (مرج).
(٧) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوي).
(٨) أرزم : الرزمة ضربٌ من حنين الناقة على ولدها حين ترأمه ، انظر : اللِّسان ، مادة (رزم) .
(٩) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين وقيل هو الشعب الواسع بين جبلين ، انظر : اللِّسان ، مادة (فجج).
(١٠) الفيح : الواسعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيح).
(١١) البروج : الكواكب والنجوم ، انظر : اللِّسان ، مادة (برج).

وهجير الصحراء ، وظلام الليل ، وغير ذلك ممّا يعتري الرواحل ، لأنَّ الغاية هنا مختلفة ، فهي غاية روحيَّة ، تسمو بالوصف عن ذكر الأوجاع والتعب ـ مع وجودهما ـ لأنَّها وإن كانت رحلةً تقطع الفيافي ، إلاَّ أنَّ غايتها تجعل هذه الرواحل تسيرُ على التراب ، ولكن روحها تتطلع إلى السماء ، وقلبُها يستشفُّ الفيضَ النوراني الروحاني الذي يأمُّونه .

ولذا وصف الشاعر بعد ذلك لواعج الهوى التي تُنسي وتسلِّي كلَّ ما سواها ، فقال[1] :

إذا زمَّها نحو الحجازِ حداتُها ... أغارَ بهنَّ الشوقُ وهو لعوجُ[2]

هواهنَّ ما بين الحجونِ[3] مخيِّمٌ ... وبين أُثيلات العقيقِ دَروجُ[4]

تسلَّينَ عن كلِّ البقاعِ فلن تُرى ... على غير أكنافِ البقيعِ تهوجُ[5]

فالشاعر بعد أن وصف إبلاً قويَّة تنفذ بسرعةٍ كالسهم ، وترزم كالرعود ، حتى أنَّ صوتها يملأُ الفيافي ، جاء بكلمتي الإرزام والحداة ، لأنه أراد أن يقود الصُّورة إلى مناطِ الرحلة وسببها ، وقرنهما بالشَّوق الملهب ، والهوى الذي استعار له صفة التخييم البدويَّة ، والنسيم ، وأضاف إلى هذه الصورة البدويَّة

---

(١) ديوان عبد العزيز القشتالي ، ص٢٩٨ .

(٢) لعوج : اللاعج : الهوى المحرق ، انظر : اللِّسان ، مادة (لعج).

(٣) الحجون : جبلٌ بأعلى مكة عنده مدافن أهلها ، وهو بناحيةٍ من البيت ، قال مضاض الجرهمي يتشوق مكّة :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

معجم البلدان ، ٢/٢٢٥ .

(٤) دروج : الدرج : المشي ، والدروج من الرياح السريعة المرِّ وقيل هي التي تدرج أي تمرّ مرًّا ليس بالقوي ولا الشديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (درج).

وقد يكون أراد بالدروج المشي على تشبيه الهوى بالغلام وقد يكون أراد به الريح السريعة المرور على تشبيه الهوى بها .

(٥) تهوج : تهبُّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (هوج).

ما يغذي عنصر الحنين فيها ، بذكر العقيق والحجون ، والأثيلات بأسلوب التصغير المحبَب ، وقد وصف شوق إبلٍ ، أو شوقه هو ، لأنَّه توحّدت المقاصد بينهما فاتّحدا في المشاعر ، ولذا بارَت الإبل الريح حتَّى أناخت في حضرة النبي ﷺ ، قال[١] :

ولاحت لـهـا أعلامُ يثربَ فارتـمتْ   إليها تُبـاري الـريحَ وهـو نئـيجُ[٢]
أنخنَ علـى ربـعٍ بـه موكـبُ العُـلا   يـمـوجُ وأملاكُ السـماءِ تـروجُ[٣]

وقد اتخذت الرِّحلة النبويَّة مساراً روحيًّا سامياً بعيداً ، فترفَّع الشعر عن ذكر ما كان يكابده شاعره في الرحلةِ لملكٍ أو غيره ، لأن القدسيَّة المُضفَاة على هذه الرحلة ، جعلت الصورة بدويَّة روحيَّة ، ولذا جاءت القصائد النبويَّة التي تذكر المطايا والرواحل متضمنةً معاني الانتشاء وهو انتشاء روحي ، يسمو بها إلى عالمٍ بعيدٍ عن ملذاتِ الدنيا ونقائصها ، فمن ذلك يقول ابن فُرْكُون من قصيدةِ مدحٍ نبويَّة[٤] :

وركبٍ مفـدًّى بـالنفوسِ أمالـهـم   حثيثُ سراهم لا الرحيـقُ[٥] المفـدَّمُ[٦]

وجمع ابن فُركون إلى وصف الرّكب بالانتشاء الروحي الذي يشبه شرب الخمر ، وصف انتشاء النظر ، وانتشاء السمع ، فقال[٧] :

إذا اسـتقبلَ الحـادي المطَايـا مرجِّعَـاً   فما الـروضُ أو مـا الطـائرُ المتـرنِّمُ

وفي مثل هذا المعنى يقول عبد الله بن محمد الخطيب[٨] :

---

(١) ديوان القشتالي ، ص٢٩٨ .
(٢) النئيج : السرعة ، وريح نؤوج ، شديدة المرِّ ، والنائجات ، الرياح الشديدة الهبوب ، انظر : اللِّسان ، مادة (نأج).
(٣) تروج : تسرع ، انظر : اللِّسان ، مادة (روج).
(٤) ديوان ابن فركون ، ص٣٢٣ .
(٥) الرَّحيق : من أسماء الخمر ، وهو من أعتقها وأفضلها ، انظر : اللِّسان ، مادة (رحق).
(٦) المفدَّم : الإبريق الذي يُسقى منه الشرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (فدم).
(٧) ديوان ابن فركون ، ص٣٢٣ .
(٨) نفح الطيب ، المقرّي ، ٢٩١/٧ .

وفي ذمَّـــةِ اللهِ ركـــبٌ ســـروا يجـدُّون والليـلُ مرخـي السُّـدول
نشاوى بكأسـين كـأسِ الـهـوى وكاسٍ مـن الخمـرِ مثـلِ الشُّـمول

وقد اتخذ وصف هذا الانتشاء الروحي في الرحلةِ الحجازيَّة صوراً عدَّة استبدل فيها بالخمر الذكرَ ، والشوقَ للرسول ﷺ ، وكثر هذا الوصف ، ومن ذلك قصيدة مدح نبويَّة لابن زُمْرُك ، وصف فيها رحيل (ركب الحجاز) ، الذين جعلهم يترنَّحونَ فوقَ الرَّواحل ترنُّح السكارى ، انتشاءً بالزيارةِ وشوقاً للرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال[1] :

مثلُ القسـيِّ ضـوامرٌ قـد أُرسِلَتْ يـذرعنَ عـرضَ البيـدِ مـيلاً مـيلاَ
متـرنِّحين علـى الرِّحـالِ كأنَّما عاطينَ من فرطِ الكمـالِ[2] شمـولا[3]
إن يلتـبسْ علـمُ الـدَّليلِ علـيهم جعلُـوا التشـوُّفَ للرَّسـولِ دلـيلا

وقد جاءت صورة الرَّكب المترنحين كثيراً في الشعر القديم ، ولكن معظمها كانت في سياق وصف مشاقِّ الرحلة وشدّة التعب ممَّا جعلهم يتمايلون فوق الرواحل إرهاقاً ، من مثل قول ذي الرُّمة[4] :

سقاةُ الكرى كـأسَ النُّعـاسِ فراسُـهُ لدينِ الكرى من آخـرِ اللَّيـلِ سـاجدُ

وهو ما اختلف عن السِّياق الروحي في صورة الانتشاء ، التي جاءت أيضاً كثيراً في الشعر القديم في سياقات متعددة ومنها وصف انتشاء الشباب من مثل قول جميل بثينة ينعي نفسه[5] :

ولقـد أجـرُّ الـذيل في وادي القـرى نشـوانَ بـين مـزارعٍ ونخيـلِ

أو وصف انتشاء الحبّ ، في مثل قول عنترة[6] :

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٧٦ .
(٢) الكمال : التمام ، انظر : اللِّسان ، مادة (كمل) .
(٣) الشمول : الخمر الباردة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شمل) .
(٤) ديوان ذي الرُّمة ، ص٣٨٥ .
(٥) ديوان جميل بثينة ، ص١٧٦ ، قالها لمَّا حضرته الوفاة .
(٦) ديوان عنترة ، ص٧٢

زار الخيالُ خيالُ عبلةَ في الكرى		لمتيَّمٍ نشوانَ محلولِ العرى

وهي معاني إن دلَّت على ذات الوصف، الذي يُراد به السعادة، وطيب النفس والسرور، إلاَّ أن الغاية الدينيَّة في وصف الانتشاء في المدائح النبويَّة بالأندلس، ابتعدت به عن الدنيويَّة إلى عوالم روحيَّة أنقى وأسمى.

وقد تأتي الرحلة في المديح النبوي، رحلة روحٍ هائمةٍ ضالّةٍ مقرَّةٍ بالذنب، تاهت بها مطايا النفس في ضلالاتِ الهوى والخطايا، فآنست في المديح النبوي الصباح، وارتحلت في الشعر إلى قبر الرسول ﷺ ارتحالَ المقرِّ بالذنب إلى التوبة، المغتسل بالاستغفار من وعثاء السيئات ((وقد اعتادَ وفد الحجيج السفر إلى بيت الله الحرام على الرواحل والمطايا المحسوسة، ولكن قد يرحلون في بعض الأحيان ويمتطون غير ما تعارف عليه الناسُ واعتادوه فمنهم من يمتطي أشواقه المتأجِّجة وجوانحه، وبذا ينتقل إلى عالم اللامحسوس، واللامرئي في هذه الرحلة الطويلة التي تحفُّها الأنوار القدسيَّة...))[1]، يقول ابن الخطيب[2]:

جادَ الحمى بعدي وأجراعَ الحمى		جودٌ تكفَّلُ به متونُ الريحِ
هنَّ المنازلُ ما فؤادي بعدَها		سالٍ ولا وجدي بها بمُريحِ
حسبي ولوعاً أنَّ أزورَ بفكرتي		زوَّارها والجسمُ رهنُ نزوحِ
فأبثُّ فيها من حديثِ صبابتي		وأحثُّ فيها من جناحٍ[3] جنوحي[4]

وفي القصيدة يصف ابن الخطيب نفساً منقبضة مظلمة كثرت همومها،

---

(١) وصف البيت الحرام، دكتورة سعاد محجوب، ص٣٠٣.
(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب، ١/٢٤٢.
(٣) الجناح: ما يخفق به الطائر في طيرانه، وجنح الرجل إذا مال، انظر: اللِّسان، مادة (جنح).
(٤) الجنوح: من الجناح، وهو ما تحمَّل من الهمِّ والأذى والإثم، قال عز وجل: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣٥)، الجناح: الجناية والجرم، والإثم، والضيق، انظر: اللِّسان، مادة (جنح).

وذنوبها ، فصوَّر ليلاً شديد السواد ، قليل الكواكب ، كالبحر المتلاطم الأمواج ، قال[1] :

ودجنَّــةٍ كــادَت تضــلُّ بي السُّــرى ... لــولا وميضَــا بــارقٍ وصــفيحِ
رعَشَــتْ كواكــبُ جوِّهــا فكأنــها ... وُرقٌ تقلِّبــها بنــانُ شــحيحِ
صابرت منها لجــةً مهمــا ارتــمــتْ ... وطَمَــتْ رميــتُ عُبابَهــا بسَــبوحِ[2]

ونلاحظ في الصُّورة أن الظلمة التي وصفها لم تكن مطبقةً تمام الإطباق ، فهناك وميضا بارقٍ ، وصفيح وأراد به السيف ، وهناك كواكب ـ وإن كانت قليلة جداً تقلبها بنان شحيح ـ وهناك أيضاً السَّبُوح ، الذي قد يكون أراد به الفرس ، وأنه قطع على ظهره هذا الظلام إلى غاية سيذكرها فيما بعد ، أو أراد به التسبيح لأنَّ الرحلة رحلة نفسٍ مذنبةٍ فوصف أنه قطع الليل بتسبيح الله وتنزيهه ، والعودة عن الذنب بكثرةِ ذكره سبحانه ، وقد ذكر التسبيح أو السبوح ، إضافةً لقليل لمعانٍ في البرق والكواكب ، لأنه أراد بصيص الأمل والنُّور في القرب لله تعالى عن طريق مدح رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وهي الغاية التي قد يكون كنّى بالفرس السابح عنها ، ولذلك قال بعد ذلك[3] :

شِمتُ[4] المنى وحمــدتُ إدلاجَ السُّــرى ... وزجــرتُ للآمــالِ كــلَّ سـنيحِ[5]
فكأنَّمــا ليلــي نســيبُ قصــيدتي ... والصُّــبحُ فيــه تخلُّصــي لمديــحــي

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢٤٢/١ .

(٢) السبوح : الفرس ، وسبْح الفرس جريه ، وهي صفة غالبة ، والسابح من الخيل يمد يديه في الجري سبحاً . والسبوح : النجوم تسبح في الفلك سبحاً إذا جرت في دورانها . والسَّبوح : أيضاً تسبيح الله تعالى والخفة إلى طاعته عز وجل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبح) .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢٤٢/١ .

(٤) شمتُ : نظرت من بعيد وتطلعت إليها ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيم) .

(٥) السنيح : ما يأتي عن اليمين من ظبي أو طائر أو غير ذلك والسانح يتيمّن به ، ويتفاءل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنح) .

لما حططتُ لخير من وطئَ الثَّرى بعنانِ كلِّ مولَّدٍ وصريحِ

ورحلةُ ابن الخطيب هنا ـ كما ذكرنا ـ قد تكون رحلة عذاباتِ نفسٍ مضت في الهوى ، وجدت في مدح الرسول ﷺ عودةً عن الذنب ، وتبرُّكاً ، فقد قال قبل ذلك (أزور بفكرتي)[1] وهو بعد ذلك يقول متحسِّراً على ماضي أيامه[2] :

لهفي على عمرٍ مضى أنضيتُهُ في ملعبٍ للترُّهاتِ[3] فسيحِ
يا زاجرَ الوجناءِ يعتسفُ الفلا[4] والليلُ يعثرُ في فضولِ مسوحِ[5]
لي في حمى ذاكَ الضَّريحِ لبانةٌ إن أصبحتْ (لبنى) أنا (ابنُ ذريحِ)

وهذا الإقرار بالذنب الذي يشوبُهُ الرجاء بالعفو يكثر في شعر المديح النبوي ، حتى كان هذا المديحُ صلاةً وتطُّهراً ، وبوحاً واغتسالاً للرُّوح في المحراب النبويّ ، يقول ابن سهل في قصيدة مدح نبويَّة[6] :

تنازعني الآمالُ كهلاً ويافعاً ويُسعدني التعليلُ لو كانَ نافعَا
وما اعتنقَ العَليَا سوى مُفردٍ سرى لهولِ الفَلا والشوقِ والسَّوقِ رابعَا
رأى عزماتِ الشَّوقِ قد نَزَعتْ به فساعدَ في الله النَّوى[7] والنَّوازِعا[8]

ويأتي ابن سهلٍ بعد ذلك بوصفٍ للرَّكب المرتحل ، أشبه ما يكون بوصفٍ لمصلين خاشعين ، تنهمرُ دموعهم شوقاً للرسول عليه الصلاة والسلام ،

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢٤٢/١ .

(٢) المصدر السَّابق ، ٢٤٢/١ .

(٣) الترهات : الأباطيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (تره) .

(٤) يعتسف الفلا : يقطعها بلا قصدٍ ولا هداية ولا صوبٍ ولا طريق مسلوك ، انظر : اللِّسان ، مادة (عسف) .

(٥) المسوح : جمع مسح ، وهو كساءٌ من الشعر ، انظر : اللِّسان ، مادة (مسح).

(٦) ديوان ابن سهل ، ص٢٣٢ .

(٧) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قربٍ أو بعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوي).

(٨) النوازع : النزع الجذب والقلع ، انظر : اللِّسان ، مادة (نزع).

وتتحنَّى أجسامهم عند ترديد ذكر الله تعالى كالغصون المتمايلة ، والحمائم الساجعة ، ويشبِّه قلوبهم في تلاقيها على اليقين والإيمان ، بصورة بدويَّة للقطا الذي يحوم جماعاتٍ حول شرائع المياهِ ، ويأتي بوصفٍ رائع للتقوى ومخافة الله تعالى ،فيجعلها ضياءً نورانيّاً يكتنفُ نفوسَهم في رحلتهم الحجازيَّة يسيرون به في مدلهمَّات الليل ، ليصلوا به إلى خير خلق الله تعالى ، يقول[1] :

وركـــبٍ دعتـــهم نحـــو يثـــربَ نيَّـــةٌ ... فمـــا وجـــدت إلاَّ مطيعـــاً وســـامعَا

يسابقُ وخْدَ العيسَ مـــاءُ شـــؤونهم[2] ... فيفنـــونَ بالشـــوقِ المـــدى والمـــدامعَا

إذا انعطفوا أو رجَّعوا الـــذكرَ خلتـــهم ... غصـــوناً لـــداناً أو حمامـــاً ســـواجعَا

تضيءُ من التقـــوى حنايـــا صـــدورهم ... وقد لبسوا الليـــلَ البـــهيمَ مـــدارعَا[3]

تلاقى على وادي الـــيقين قلوبـــهـــم ... خوافقَ يُـــذْكِرْنَ القَطَـــا والمشـــارعَا[4]

ويأتي بعد ذلك ابن سهل بوصفِ الشوق الروحي للزيارة ، والرغبة في التخلُّص من علائق الهوى ، ومثبِّطاتِ الذنوب ، يقول[5] :

فذاقوا لبـــانَ الصِّـــدق محضـــاً لعـــزِّهم ... وحـــرَّم تفريطـــي علـــيَّ المراضـــعَا[6]

خذوا القلبَ يا ركـــبَ الحجـــازِ فـــإنني ... أرى الجســـمَ في أســـرِ العلائـــقِ قابعَـــا

ولا تُرجعُـــوه إن قفلـــتم فإنَّمـــا ... أمـــانتكُم ألا تـــردُّوا الودائعَـــا

وقليلاً ما يعرفُ قريبُ الدّارِ ممَّن أحبَّ وما أحبَّ ، الشوقَ الذي يكتنفُ البعيدَ عن الديار ، والمحبوبةِ والحبيب ، فما بال هـذا الشـوق إذا كـان لبيتِ الله

---

(١) ديوان ابن سهل ، ص٢٣٢ .

(٢) الشؤون : عروق الدموع من الرأس إلى العين ، انظر : اللِّسان ، مادة (شأن).

(٣) مدارعا : المدرع ضربٌ من الثياب التي تُلبس ، انظر : اللِّسان ، مادة (درع).

(٤) الشريعة : المواضع التي ينحدر إلى الماء منها ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرع).

(٥) ديوان ابن سهل ، ص٢٣٣ .

(٦) استلهم هذا المعنى من قوله تعالى في قصَّة موسى عليه السلام : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ (القصص:١٢).

تعالى وللنبي المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم ، يقول أحدهم[1]:

إذا كان حبُّ الهائمين من الورى بليلى وسلمى يسلبُ العقل واللُّبَا

فماذا عسى أن يصنع الهائمُ الذي سرى قلبُه شوقاً إلى العالمِ الأعلى

فلم يكن الحجُّ والزيارة متاحاً للكثيرين ، وقد يتيسَّرُ مرَّة ويصعبُ أُخرى ، ولذا أجَّج البعدُ العواطفَ والمشاعر ، وكلَّما نأت الديار اشتعل الوجد ، وكثرت التهويمات في عوالم الحبِّ ، وهو هنا حبٌّ إلهي ، يرتقي بالمشاعر إلى الأسمى فيدنو وصف هذه اللواعج من عذريَّة النسيب البدويّ ، ويتداخل مع المديح النبويّ ، ويلفُّ هذا المديح بعباءَة العاشق الأعرابي ، النقيِّ الحشايا ، الطاهر النوايا ، الرقيق القلب ، الذي يعشق أرض بدويَّتِهِ ، وسماءها ، ونسيمها ، وبرقها ، ويحنُّ إليها حنين العشار ، وهو ما ذكر بعض الباحثين أنَّه شوقٌ ووجدٌ للرسول ﷺ ((في صورة نسيبٍ رمزيّ))[2] ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها قصيدةُ مدح نبويَّةٍ لعبد العزيز القشتالي يقول في أولها[3] :

إنسانُ عيني هامَ ما أن يفيق لـمَّا رأى بالعينِ سفحَ العقيقْ

وفيها يصف الشوق : (يصلى بنار الشوق) [4] ، ولواعج الهوى : (بالمنحنى منها عرفتُ الهوى) [5] ، وأرض الحمى : (يهفو إلى باناتِ أرضِ الحمى) [6] ، ثم يصف بعد ذلك الأراضي المقدَّسة ، وصفَ عاشق عذريّ ، يقول[7] :

أغارُ إن مرَّ النسيمُ بها معانقاً لكلِّ قدٍّ رشيقْ

أرضٌ إذا هبَّت بها نسمةٌ شممتُ منها المسكَ وهو فتيقْ

---

(١) انظر : الكشكول ، بهاء الدين العاملي ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م ، ١/٤٤ .

(٢) القصيدة الأندلسيَّة خلال القرن الثامن الهجري ، دكتور عبد الحميد عبد الله الهرّامة ، دار الكتاب ، طرابلس ، ط . الثانية ، ١٤٢٩هـ ، ١٩٩٩م ، ١/٣٥٥.

(٣) ديوان القشتالي ، ص٣٦٢ .

(٤-٧) المصدر السَّابق ، ص٣٦٣ .

حصباؤها درٌّ ومن تربها   يستبضعُ الغزلانُ طيبَ الخلوقْ
بالخيفِ منها للهوى معركٌ   تلقى به الصبرَ هزيمَ الفريقْ
يا أهلَ نجدٍ حبُّكم متلفٌ   قلبي فهل منكم رحيمٌ شفيقْ
وهل إلى أوطانكم زورةٌ   تدنُو وهل لي نحوكم من طريقْ
مُرُوا لعيني أن تنامَ فقد   قنعتُ منكم بالخيالِ الطروقْ
هلاَّ رثيتم لقتيلِ الهوى   وأصلكم في المجدِ أصلٌ عريقْ

إلى أن يقول[1] :

صفوةُ كلِّ الرُّسلِ من آدمٍ   جامعُ شملِ الدينِ وهو فريقْ

فذكر الشاعر من أسماء الأماكن البدويَّة : نجد والعقيق والخيف ، وذكر من مسميَّات أماكن البادية : الحمى ، والمنحنى ، وجاء بذلك في سياق وصفٍ لحبٍّ عظيم ذكر إتلافه : (حبكم متلفٌ) [2] (قتيل الهوى) [3]، وعلاماته : من شوق (نار الشوق)[4]، وغيرةٍ (أغارُ إن مرَّ النسيم)[5]، وقلَّةِ نومٍ (مروا لعيني أن تنام)[6]، وهو هنا وَصَفَ الشوق إلى الديار وساكنيها ـ وأراد بهم الرسول ﷺ ـ وَصْفَهُ شوقَ عاشق مدنفٍ إلى ديارِ من يحب ، رأى في هذه الأماكن على بداوتها حصباءَها دُرًّا ، ونسيمها مسكاً ، بما دلَّ به على قيمتها في النفس التي جعلته يراها بعين القلبِ والخيال ، رؤيةَ أرضٍ في الأحلام ، وهنا تختلط الأماكن في الشعور الحنيني ، (العقيق والخيف) بـ (نجدٍ) التي هي منبعُ الحنين البدويِّ ، وهو توظيفٌ للرموز البدويَّة القديمة ، بما فيها من أماكن ، وللهوى العذري القديم وما فيه من لواعج ، لوصف حبٍّ سماويٍّ بعيدٍ بروحانيته عن كلِّ ما في الأرض .

وبمثل هذا النسيب العذري يبدأ القشتالي قصيدة مدحٍ نبويَّة أخرى ، يذكر فيها زيارة الطيف ، فيقول[7] :

---

(١) ديوان القشتالي ، ص٣٦٤ .
(٢-٧) المصدر السابق ، ص٣٦٣ .

ما بالُ طيفكَ لا يزورُ لماما ... وبمنحنى الأحشا ضربتَ خياما
أيعيشُ فيكَ عواذلي بسلّوهم ... وأموتُ فيكَ صبابةً وغرامَا
وتبيحُ نهركَ سائلاً من أدمعي ... أوليس نهرُ السائلين حرامَا
ما ذقتُ ماءَ لماكَ في سنةِ الكرى ... إلا انتبهتُ فكان لي أحلامَا

وهذا الخطاب النسيبي الذي يبدأ فيه الشاعر بذكر الطيف والدموع واللَّما ، قديمٌ في قصائد المديح النبويَّة ، فقد وصف حسان بن ثابت رضي الله عنه زيارة الطيف في قصيدة مدح بها الرسول ﷺ ، فقال[1] :

فدعْ هذا ولكنْ من لطيفٍ ... يؤرِّقني إذا ذهب العشاءُ
لشعثاءَ التي قد تيَّمتْه ... فليسَ لقلبه منها شفاءُ

ووصف كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه ريق سعاد ، ولماها ، وأنشد ذلك الرسول ﷺ ، فقال[2] :

تجلو عوارض[3] ذي ظلمٍ[4] إذا ابتسمت ... كأنه منهلٌ[5] بالرّاحِ معلولُ[6]

وابتدأ مدح النبي ﷺ بالنسيب ، لأنه جرت العادة البدويَّة على افتتاح معظم القصائد به ، لما كان في قربِ النسيب من القلوب ، ومحاكاتِهِ الفطرة في التعلُّقِ

---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق : دكتور عمر الطباع ، دار القلم ، بيروت ، ص١١ .
(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ، لأبي سعد السكري ، دار الكاتب ، القاهرة ، ط . الثالثة ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م ، ص٧ .
(٣) العوارض : الأسنان التي في عرض الفم ، وهي ما بين الثنايا والأضراس ، وهو هنا يصف الثنايا وما بعدها أي تكشف عن أسنانها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).
(٤) الظلم : الماء الذي يجري ويظهر على الأسنان من صفاء اللون لا من الريق ، حتّى يتخيل لك فيه سوادٌ من شدّة البريق والصفاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (ظلم).
(٥) النهَل : أول الشرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (نهل).
(٦) العلّ : الشرب مرّة ثانية ، انظر : اللِّسان ، مادة (علل).

بالمرأة ، فاتُخذ طريقةً تعطف القلوب إلى الشعر بوصف لواعج الحب والهوى الذي يرتقي في المدائح النبويَّة ليكون ذريعةً لوصف حبّ الرسول ﷺ ، ((لذلك يوجد تشابه كبير بين الشعر الديني والغزل النجدي الحجازي ، إذ يجمع بينهما نفس الحنين إلى أرض الحجاز مهبط الوحي ومثوى الرسول ومهد الشعر العربي والغزل التقليدي))[1] .

يقول القشتالي من القصيدة السابقة[2] :

عرِّض إذا حدَّثت عن بانِ الحمى ... بحديثِ قلبٍ في الأجارعِ[3] هامَا

أروي حديثَ الرَّقمتين[4] مسلسلاً ... عن دمعِ باكيةِ الغمامِ سجَامَا

وفيها يقول[5] :

يا جيرةَ العلمين[6] دعوةَ شائقٍ ... للذيذِ عيشٍ بالغضَا لو دامَا

فخلوا بجرعاءِ الحمى قلبي فقد ... ألِفَ الإقامةَ بالحمى فأقامَا

وخذوا بثأري أهلَ نجدٍ إنَّهم ... سلبُوا الفؤادَ وأدنفُوا الأجسامَا

وتتداعى المعاني العذريَّة إلى أن يقول[7] :

---

(١) حياة الشعر في نهاية الأندلس ، دكتورة حسناء بوزينه الطرابلسي ، ص١٧٦ .

(٢) ديوان القشتالي ، ص٣٩٤ .

(٣) الأجارع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرع).

(٤) الرقمتين : الرقمة مجتمع الماء في الوادي ، والرقمتان قريتان بين البصرة والنباج على شفير الوادي ، وهما أيضاً روضتان بناحية الصمَّان ، وقال العمراني : الرقمتان روضتان إحداهما قريبة من البصرة ، والأخرى بنجدٍ وقيل إحداهما قرب المدينة ، والأخرى قرب البصرة ، والرقمتان أيضاً موضع قرب المدينة ، والرقمتان روضتان في بلاد بني العنبر ، انظر : معجم البلدان ، ٨/٣ .

(٥) ديوان القشتالي ، ص٣٩٤ .

(٦) العلمين : العلم بالتحريك الجبل ، وقد يكون أراد الشاعر بالعلمين علم السعد ، ودجوج : جبلان من دومة ، وهما جبلان منيفان كلٌّ واحد منهما يتصل بالآخر . انظر : معجم البلدان ، ١٤٧/٤ .

(٧) ديوان القشتالي ، ص٣٩٥ .

خيرُ الأنامِ محمدٌ الهادي الذي أردى الضَّلالَ وجبَّ منه سَنَامَا

فقد تداخل الحبُّ النوراني للرسول ﷺ مع الحبِّ البدوي القديم في انتماءاتِهِ الرَّمزيَّة ، لسلمى ، وعزَّة ، ودعد ، أو لتهامة ونجد ، وهي أماكن حميميَّة تحتفظ في ذاكرتها بالزَّمان البدوي النَّقي الأوَّل ، الذي يشعل الحنين والأشواق ، ولذا وجدنا في هذا الشِّعر ذكر نجد وتهامة وغيرها ، ممَّا لم يكن من الأماكن الحجازيَّة التي عاش فيها ﷺ ، وبها قبرهُ عليه السلام ، ولكنَّ تداعيات الأمكنةِ في الخيالِ الشعري يجعل الوهج الحنيني يرتفع ، فتتسرَّب أسماء الأماكن البدويَّة إلى الشعر حجازيَّها ونجديَّها ، تسرُّب النسيب البدويّ إلى المديح لخير خلق الله تعالى ، وتصبح كلُّ الأمكنة البدوية منتميةً في الشعر إلى الموطن القديم ، والعهد الأول ، والهوى العتيد ، والرسول الحبيب ، ويصدق في ذلك قول المجنون[1] :

لا تقل دارُها بشرقيّ نجدٍ كلُّ نجدٍ للعامريَّةِ دارُ
فلها منزلٌ على كلِّ أرضٍ وعلى كلِّ دمنةٍ آثارُ

ويُكثِرُ الشُّعراء الأندلسيُّون في المدائح النبويَّة من ذكر الصَّبا ، والبرق ، والصبابة ، والدموع ، وغيرها من الإشارات العذريَّة يقول ابن الصَّباغ الجذامي[2] :

يهيجُ غرامُ الصَّب إن هبَّت الصَّبا فيذكر أوطاناً بها ألفَ الصِّبا
ضمانٌ على عينِ المتيَّمِ إن هَفَا بريقُ اللِّوى أن تسكبَ الدمعَ طيِّبا

---

(١) مرَّ المجنون على منازل ليلى بنجد فأخذ يقبل الأحجار ، ويضع جبهته على الآثار فلاموه على ذلك فحلف أنه لا يقبل في ذلك إلاَّ وجهها ولا ينظر إلاَّ جمالها ، ثم رؤي بعد ذلك وهو في غير نجد يقبل الآثار ويستلم الأحجار ، فليم على ذلك وقيل له : إنها ليست منازلها ، فأنشد :

لا تقل دارها بشرقي نجد . . . . . .

انظر : الكشكول ، بهاء الدين العاملي ، ٦١/١ .

(٢) ديوان ابن الصباغ الجذامي ، ص٤٤ .

فيا معهد الأحباب والصبُّ نازحٌ   متى يرد الظمآن في الري مشربا

ثم يذكر اسمَ معشوقةٍ بدويَّة (سلمى) ويقرن ذكرها برقيق الحديث في الأسحار مع الحمام ويضيف إلى هذا الوصف الحنيني الآسر ، ذكر الربع والمحصَّب ، يقول[1] :

ويـــا دارَ ســـلمى والتباعـــدُ بيننـــا   متى الدَّهرُ يُـــدني منـــكِ صَـــبًّا معـــذَّبَا
يطـــارحُ بالأســـحارِ ورقَ حمـــائمٍ   وإن جنَّـــت الظلمـــاءُ ســـامرَ كوكبَـــا
ولا عجـــبٌ أن طـــالَ بـــالربعِ حزنُـــه   وقد أصبحُوا عن ســـاحةِ الرَّبـــع غُيَّبَـــا
فللـــهِ أعـــلامُ المحصَّـــب كَـــمْ وكَـــمْ   ركبنا بـــهـــا للأنسِ واللَّهـــوِ مركبَـــا
معاهـــدُ كانـــت للأوانـــسِ مألفَـــاً   فيامـــا ألـــذَّ العـــيشَ فيهـــا وأطيَبَـــا

وهكذا تأتي مقدّمات المديح النبويّ محمَّلةً بمعاني الشوق ، والحبِّ للرسول ﷺ ، مغلَّفةً بأستارٍ بدويَّةٍ كثيرة منها العشق العذريّ ، والأماكن البدويَّة ، والرحلة والأظعان والحمول ، التي تصبح رحلة أشواقٍ وأوطارٍ دينيَّةٍ لعالمٍ أنقى وأصفى وجد الشاعر في البداوة صورته ، يقول الجذامي في نفس القصيدة[2] :

ســـأعملُ للأحبـــاب ســـيرَ ركـــائبي   وأقطـــع بحـــراً للمعـــالي وسَبْسَـــبَا
فقد شِمْتُ مـــن تلقـــاءِ يثـــربَ بارقـــاً   وقد طابَ عيشـــي بالحبيـــب وأخصَـــبَا
ألا فـــاعجبوا قلـــبٌ ترحَّـــلَ مشـــرقاً   وغـــادرَ جســـماً قـــد تـــوطَّنَ مغربَـــا

ويستخدم الشاعر صورة الحنين العذريَّة ، الموظفة لريح الصَّبا في تنسم الشوق ، وإبلاغ التَّحايا ، كما كان البدو يجدون ريحها ، حول الخيام متسامرين في الأسحار ، والعشايا ، يقول[3] :

ويطـــربني ذكـــرُ العقيـــقِ فـــأنثني   كـــأنِّي غصـــنٌ جاذبتـــه يُـــد الصَّـــبا

(١،٢) ديوان ابن الصباغ الجذامي ، ص٤٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص٤٥ .

ألا يا صَبا الأسحارِ عنّي فأبلغن سلاماً كما نمَّت أزاهرُ بالرُّبا
على الطَّاهر الأزكى العلي محمَّدٍ وأصحابه السامين في المجدِ منصبَا

وقد كانت الأشواقُ للنبي ﷺ ، والشعورُ العام بالحاجةِ إلى فيضه الروحي عليه الصلاة والسلام ، باعثاً لكثرةِ النسيب البدوي في قصائد المدح النبويَّة في الأندلس ، لأنَّ البعد ـ كما ذكرنا ـ يؤجِّج الأشواقَ ، وقد كانت الأندلس بعيدةً جغرافيًّا عن الديار المقدَّسة ، ولذا وجدنا القصائد تذكر الرسول ﷺ كما ذكر المحبُّ حبيبته ، وتبثُّه الأشواق ، شوق العاشق لمعشوقته ، فكان في عذريَّة النَّسيب التي تسمو بالعواطف فوق الرغبات ـ ممَّا هو مشابه للعاطفةِ نحو الرسول ﷺ ـ وجودٌ قويٌ في المدائح النبوية التي يختلط فيها التعبيرُ عن الحب للرسول ﷺ ، بالوصف العذريّ للهوى ، على أنَّ الفرق لا يزال ، في سموّ حبّ المصطفى الروحي النورانيّ ، ولذا أكثروا في هذا النسيب من وصف الحمول والأظعان وترحُّل المحبين الذي تصحبه الأشواق وكأنهم بذلك ينعون أنفسهم الباقية في الأندلس ، دون المرتحلين ، فمن قصيدةٍ لابن الصَّباغ الجذامي ، يقول في أوَّلها[1] :

تهيج صباباتي ويذكي لهيبها إذا ما سرتْ من أرضِ نجدٍ جنوبُها
وتذكرني الزوراءُ زورةَ أحمدٍ فتنهلُّ من أجفانِ عيني غروبها

وفيها[2] :

فمن مبلغٌ وادي العقيق تحيَّةً كنفحِ فتيقِ المسكِ يارجُ طيبُها

ثم يصف الأظعان ، فيقول[3] :

يا حادي الأظعانِ رفقاً بسيرها فلي غُلَّةٌ بين الضلوعِ لهيبها
ونفسٌ على بعدِ الدِّيارِ قريحةٌ أذابَ ذمَاها[4] نأيُها ووجيبها

(١-٣) ديوان ابن الصباغ الجذامي ، ص٥٧ .
(٤) الذماء : بقيّة الروح ، انظر : اللِّسان ، مادة(ذمي).

سَلُوا مهجتي عن سقمها ونحولها وإن كان عنها قد أبانَ شحوبُها

ثم يصف علَّته بالشوق لمن أحب وهو الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، فيقول[1] :

ألا فاعجبوا بالغربِ نفسٌ عليلةٌ وفي لثمِ ترب الغَورِ[2] يُلْفَى طبيبُها

وكيف بقَاها في منازلِ غربةٍ وفي يثربٍ أضحى مقيماً حبيبُها

وقوله (في منازل غربةٍ) ، يوضح الحنين الروحي والظمأ إلى ما يمثلّه الرسول ﷺ ، من التفافٍ على الدين ، وما تمثلّه أرضُ الدعوة من نقاء وصفاءٍ يتطلَّعُ إليه أهل الأندلس في أيام الفتن والاضطراب ويحسُّ القابض على دينه فيها ، بالغربة الرُّوحية ، والخوف على عقيدته من الخطر النصرانيّ ، ولذا يتطلَّع القلبُ الحيُّ بالمديح النبوي لمن أحب ، والمكان الذي أحبّ ، والزمن الماضي الذي شهد قيام الدعوة ، ونصرة الدين .

ويصف الجذامي وجده وشوقه في قصيدةٍ أخرى أوَّلها[3]:

إذا لَمعتْ عندَ الأصيلِ بروقُ تذكَّرَ ذو وجدٍ وحنَّ مشوقُ

وتستهويه صورة الأظعان المرتحلةِ التي تمضي بالأحبَّة ، وتترك الرُّوحَ العاشقة تهوِّمُ فوق الركبان ، تحدوهم بحداء الشوق ، فيستعيرها ، في وصف المرتحلين إلى طيبة[4] :

إذا حرَّك الأظعانَ حادٍ بشدوه فقلبي له نحو القبابِ خفوقُ

فيا حادي الأظعانِ رفقاً فإنَّ لي فؤاداً على التفريقِ ليسَ يطيقُ

أسفتُ لدهرٍ حالَ بيني وبينهم وما خلتُ أنَّ العائقاتِ تعوقُ

---

(١) ديوان ابن الصَّباغ الجذامي ، ص٥٨ .

(٢) الغور : بالفتح ثم السكون وآخره راء ، تهامة وما يلي اليمن ، قال الأصمعي : ما بين ذات عرق إلى البحر غورٌ تهامة وطرف تهامة من قبل الحجاز ، والغور أيضاً غور الأردن بالشَّام ، وغور العماد ، وغور ملح ، انظر : معجم البلدان ، ٤/٢١٧.

(٣) ديوان ابن الصبَّاغ الجذامي ، ص٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص٣١ .

ترحَّـل أخـدانـي إلى أرضِ طيبـةٍ فهـل لي إلى ذاك المقـامِ طريـقُ
لقد صدعت قلبي حـداةُ جمالـهـم عشـيَّة سـارت بالـهـوادجِ نـوقُ

ويأتي النسيب العذريّ في مقدِّمات المدائح النبويَّة بكثرة ، ومن ذلك قصيدة للقشتالي ، بدأها بذكر الأمكنة البدويَّة ، فقال[1] :

أعِدْ أحاديـثَ سـلعٍ والحمـى أعـدِ وعِدْ بوصلِ اللِّـوى والـرقمتين عِـدِ
وعُجْ على المنحنى مـن أضـلعي فبـهِ نارُ الخليلِ التي سِيْطَتْ بـهـا كبدِي[2]
ومِل بأكنافِ جرعـاءِ الحمـى لتـرى مرابعَ الشَّوقِ قد أقـوتْ مـن البلـدِ
حيـثُ الجـآذرُ بالآسـادِ فاتكـةٌ وما علـيهنَّ مـن وتـرٍ ولا قـودِ[3]

وهكذا نجد ((أن مستوياتِ الوعي الرمزي لا تتوقف أبداً ، في مكانها ويصبح من الصعب فهم الفرق بين (توضح) كما رآها امرؤ القيس ، و(الخيف) ومنحدر (منى) حيث وقف الرسول ذات مرَّة ، فالشاعر يريد كلا المعنيين ، وهناك طريقة يتذكر بها الشاعر المعنيين معاً ، وكذلك الأمر مع ليلى ، والحمى ، وسلع ، وعالج وضارج ، وعامر ، والعذيب ، وحاجر ، وزمزم ، وعرفات ، ومكة ، والحجاز الوعرة ونجد العالية . . .))[4] .

وكذلك الأمر في التلويحات العذريَّة والإشارات البدويَّة ، فيذكر الشاعر الصَّبا ، وتبسُّمَ البرق ، وجريان الدمع وتلهُّب الشوق ، كلَّها إشارات رمزيَّة لعالمٍ ينتمي إلى زمن آخر ، يقول القشتالي في نفس القصيدة[5]:

وشِمْ بروقـاً أضـاءت مـن ثنايـاهم وإن ظمئـتَ فمـن مـاءِ العُـذيبِ رِدِ

---

(١) ديوان عبد العزيز القشتالي ، ص٣١٣ .
(٢) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الأنبياء:٦٨،٦٩).
(٣) القود : قتل النفس بالنفس أي القصاص ، انظر : اللِّسان ، مادة (قود).
(٤) صبا نجد ، شعرية الحنين في النسيب العربي ، ياروسلاف ستيكيفيتش ، ص١٩١ .
(٥) ديوان القشتالي ، ص٣١٣ .

وقل لـــهـــم إن جرى دمعـــي بـــربعهم ... لا تنـــهروا ســـائلاً وافى علـــى بعـــدِ
يـــا جـــيرةَ العـــالمين الله في دنـــفٍ ... يصلي بنـــارِ عـــذابٍ مـــنكم وقِـــدِ[1]
ويا نسيمَ الصَّبا إن جئـــتَ كاظمـــةً[2] ... وجئتَ حيّ جلولَ السَّـــفحِ مـــن أُحُـــدِ

ثم يأتي القشتالي بوصفٍ تختلط فيه الطبيعة بالغزل ، ذكر فيها العناق ورشف الثغور ، وهو في ذلك يُصوّر لقاء محبين ويخلعه على الأماكن المقدسة ، ويدل به على الشوق الذي يكتنفه للطَّوافِ بالبيتِ وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، يقول[3]:

قفْ بالكثيـــبِ وعـــانقْ فوقـــه غصـــناً ... يكادُ ينقدُّ مـــن لـــينٍ ومـــن غَيـــدِ[4]
وارشفْ ثغورَ الأقاحي وهـــي ضـــاحكةٌ ... تفتُّر عـــن لولـــؤٍ رطـــبٍ وعـــن بَـــرَدِ
وطُفْ لدى البيتِ سبعاً واســـعَ ملتثمـــاً ... حتّـــى تصـــافحَ لحـــدَ المصـــطفى بيـــدِ

والصُّورة تجعلُ الحاجة الروحيَّة متواريةً خلف معانٍ وأستارٍ وضعها الشاعر في كناياتِ الرشفِ واللثم والعناق ، وإنما أراد أن يدلَّ على الغاية الروحيَّة الأسمى وهي زيارة قبر المصطفى ﷺ ، بالغاية الدنيويَّة الأعلى في وصف الهوى ، وهي وصلُ المحبِّ لحبيبه ، فجاء بمعنى الزيارة للرسول ﷺ ، تحت قناع الوصالِ للحبيب ، ووصفه التقبيل والعناق فيه شَوبٌ من وصف ريق ولمى سعادٍ عند كعبِ بن زهير ، كما اقتربت أيضاً قصيدةُ مدح نبويَّة للسان الدين

---

(١) وقد : مشتعلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (وقد) .

(٢) كاظمة : الظاء معجمة على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، انظر : معجم البلدان ، ٤/٤٣١ .

(٣) ديوان القشتالي ، ص٣١٤ .

(٤) من غيدِ : من نعومة ، وغادة أي ناعمة ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢/١٧٩، مادة (غيد) .

ابن الخطيب من (بانت سعاد) في وصف صدِّها ، ومعاناةِ المحبِّ في سبيلها ، قال في أوَّلها[1] :

سل ما لسلمى بنارِ الـهـجرِ تكـويني وحبُّها في الحشـى مـن قبـلِ تكـويني

ثم وصف ابن الخطيب بعد ذلك كيف أنَّها مقصورةٌ في (قُبا) وهي قرية قرب مدينة[2] الرسول ﷺ ، وأنها تزري بالغزالة ، وأنَّها تصدُّ وتلهبُ الشوق ، وهو نسيبٌ أراد به الشوق لزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ولكنَّه جعل من سلمى رمزاً بدويًّا بعيد الجمال والمنال لغاية هي أيضاً بعيدةٌ في الجمال والمنال .

يقول ابن الخطيب[3] :

وفي قباب (قُبـا) قامـت لنـا بقبَـا[4] طرازها من مُـذْهَبٍ في حسـنِ تـزيين
لما انثنت في الحـُلى تزهـو ببهجتـها وبالغزالـةِ تـزري والسَّـراحين[5]
لـمَّـا تفنَّـتُ في أفنـانِ قامتـها تفنَّـتْ لفنـونِ الصـدِّ تفنـيني
وتحسـبُ الصـدَّ يُسـليني محبَّتـها هيهات لـو أن جمـرَ النَّـارِ يصـليني

وإذا تأمّلنا في الصُّورة ، وجدنا أنَّها تفنَّنت في صدِّه ، وأنَّها محبوبة عزيزة منعَّمة ترفلُ في الحُلي والحلل ، قامت له أو تراءت له من خلف أستار القباب ، مما يشبه قول زهير بن أبي سلمى[6] :

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٦١٠ .

(٢) قُبا : بالضم قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير ، وهناك مسجد التقوى ، وقبا أيضاً موضع بين مكة والبصرة ، انظر : معجم البلدان ، ٤/٣٠٠ .

(٣) ديوان ابن الخطيب ، ٢/٦١١ .

(٤) القباء : من الثياب سمي به لاجتماع أطرافه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبا).

(٥) السَّراحين : كانت العرب تكّني عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء لأنها حينئذٍ أحسن ما تكون ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرح).

(٦) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص٥٤ .

وأخلفتك ابنةُ البكري ما وعدتْ فأصبحَ الحبلُ منها واهناً خلقاً
قامت تبدَّى بذي ضالٍ لتحزنني ولا محالة أن يشتاقَ من عَشِقَا

وهي الحبالُ الواهنةُ التي جعلها ابنه كعباً ، في (بانت سعاد) التي مدح بها الرسول ﷺ ، مواعيدَ عرقوب ، حين قال[1] :

وما تمسَّك بالوصلِ الذي زعمتْ إلا كما تمسُك الماءَ الغرابيلُ
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلاً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

وقد تبلّغُ كعباً سعاداً ناقةٌ قويّةٌ جسرة ، قال فيها[2] :

ولن يبلّغها إلا عذافرةٌ[3] فيها على الأينِ إرقال وتبغيلُ[4]

ولكن المسنير يبعد على ابن الخطيب فيبكيه الشوقُ ويكويه[5] :

وقد رأيتُ مسيري عزَّ مطلبُه والطَّرف والظَّرف يبكيني ويكويني

وكما قد يجدُ الشاعر العذري في الدِّيار وذكراها عليلاً يبردُ به من لواعج الشوق ، كذلك تعلَّل ابن الخطيب بعد أن ذكر استعصاء الزيارة ، بذكر الديار ، فعاج على الحمى ، وحيَّا الحيَّ والجزع وسلع ، وذكر البان والأثل ، وهي كلُّها من رموز البادية التي دلَّ بها الشعراءُ على الشوق والحنين ، ولذا كثرت في هذا المديح ، لأنها أكثر استيعاباً وقدرة على أن يفتح الشعراء بها أبوابَ الحنين ، فقال[6] :

يا صَاحِ عُجْ بالحمى وانزلْ بهم سَحَراً وانظر لعجبِ أثيلاتِ البساتينِ
وفوقَ سفحٍ عميقِ الدَّمعِ عُجْ لترى جآذرَ الحيِّ بينَ الخُرَّدِ العينِ

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ، ص٨ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص٩ .
(٣) العذافرة : الناقة الشديدة الأمينة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عذفر) .
(٤) التبغيل : من مشي الإبل مشي فيه سعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (بغل) .
(٥،٦) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٦١١ .

ومـــلْ علـــى أثـــلاتِ البـــانِ منعطفـــاً وحيِّ سَلْعاً وسَلْ عن حـــالِ مِســـكينِ[1]
ثم آتِ جزعاً وجُزْ عـــن حـــيِّ كاظمـــةٍ واقـــرِ السَّـــلامَ علـــى خـــيرِ النبـــيينِ

والقصيدة تشبه (بانت سعاد) في خطوطها الخارجيَّة من الصورة الغزليَّة لمحبوبةٍ هاجرة ، وهي عند كعب مختلطةٌ بمشاعر الخوف والمهابة لأن الرسول ﷺ كان قد أهدر دمه ، ونحن ((لو حوَّرنا هذه الأبيات قليلاً وخلعنا منها سعاد ونظرنا إليها من جهة بيانها عن حالٍ من أحوال التعلُّق الشديد والتَّوق المتوقّد من غير أن ننظر إلى المتعلَّق به ، أو التوقِ إليه ، لصارت متضمنةً الإشارة إلى حال كعب وتعلقه بعفو رسول الله ﷺ ، ومناشدته له صلوات الله وسلامه عليه ،والذي صرف الشعر عن الإشارة الظاهرة إلى هذا هو ذكر سعاد التي تقنَّعت بهذه الإشارة ...))[2]، وكذلك تقنَّع الشوق للرسول ﷺ عند ابن الخطيب في صورة محبوبةٍ بعيدة المنال ، يشقُّ على ابن الخطيب فراقُها ، ويتأمَّلُ الوصول إليها ، وهي كلُّها أساليبُ ولمحات وإيحاءات يتخذها الشعراء في كل وقت يحمِّلونها ما يشتهون من المعاني والأغراض ، قد تظهر في الشعر ـ كما هنا ـ في صورة نسيبٍ بدوي يستتر تحت رموزه ومسمياتِهِ البدويَّةِ شوق للرسول ﷺ وقد صرَّح ابن الخطيب بذلك في قصيدةٍ نبويَّةٍ أخرى ، قال في أوَّلها ذاكراً نجد[3] :

تـــألَّق نجـــدياً فـــأذكرني نجـــداً وهـــاجَ لي الشـــوقَ المـــبرِّحَ والوجـــدَا

وفيها وصف المطر ، والبرق ، والرَّعد[4] ، واعتلال النسيم في العرصاتِ بين البان والشيح والرَّند[5] :

إذا ما النســـيم اعتـــلَّ في عرصاتـــها تناول فيهـــا البـــان والشـــيح والرَّنـــدا

---

(١) مسكين الدارمي : هو ربيعة بن عامر بن أنيفٍ من بني دارم ، ومسكين لقب ، وقال:

وسميـــت مســـكيناً وكانـــت لحاجـــةٌ وإني لمســـــكين إلى الله راغـــــبُ

انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص٣٤٧ .

(٢) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٣٣ .

(٣-٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٤٦/١ .

ثم يقول[1] :

لي الله كـم أهـذي بنجـدٍ وحـاجرٍ ... وأكني بدعـدٍ في غرامـي أو سـعدى
ومـا هـو إلاّ الشـوقُ ثـارَ كمينـهُ ... فأذهلَ نفسـاً لم تُـبِنْ عنـده قَصـدَا
وما بي إلاّ أن سـرى الرَّكـبُ موهنـاً ... وأعملَ في رملِ الحمى السنصَّ والوخـدَا

فنصَّ ابن الخطيب على أن هذه الأسماء البدويَّة للنساء والأماكن ، إنما هي رموزٌ خَلْفها شوقٌ من معدن آخر ، هو الشوق الذي جعل القلب يتحسَّر على ما فات من الزيارة ، فقال[2] :

تخلَّـفَ مـني ركـبُ طيبـةَ عانيـاً ... أمـا آن للعـاني المعنَّـى بـأن يُفـدَى

ثم أتبع بوصف رحلة ركب نورانيَّة خلتْ من أوصاب الارتحال وأوجاعه ، فلا جوع ، ولا ضياع ، ولا عطش ، ولا حرَّ ، ولا برد ، وكأنَّها رحلةٌ لا يسير ركبها على الأرض ، بل تعرج أرواحهم إلى السماء ، قال[3] :

نشدتك يا ركبَ الحجـازِ تضـاءلت ... لكَ الأرضُ مهما استعرضَ السّهب[4] وامتدَّا
وجمَّ لكَ المرعى ، وأذعنتْ الصّوى[5] ... ولم تفتقـدْ ظـلاًّ ظليـلاً ولا وِرْدَا

وقد كان من أهم ما يميّز المدائح النبويَّة الأندلسيَّة التهويم بوصف الأشواق والوجد والحبِّ ، ولواعج الهوى ، ممَّا يكابده العاشق العذريّ في شوقه لمحبوبته ، ويختلط في هذا المديح : النسيبُ بالشوقِ للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، فيصبحان في هذه المدحة واحداً ، وإن كانت المعاني ترتقي إلى أبعادٍ روحيَّة أسمى ، ((وتبقى الحبيبةُ التي يطمح الشاعر للقياها من غير لحم ودم ، وإنما الحبيبة الرمز ، هي البقاع المقدَّسة هي كلُّ أمانيه في الدنيا ، ولو جاد له دهره بها ساعة لتحقَّقت تلك الأماني وما هي إلاَّ تطلع لزيارة قبر

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٤٧/١ .
(٢،٣) المصدر السَّابق ، ٣٤٨/١ .
(٤) السَّهب : الفلاة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سهب) .
(٥) الصوى : الأعلام المنصوبة في المفاوز المجهولة يهتدى بها ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوي) .

الرسول ﷺ))[1] ، ومن هنا وجدنا أن المدائح النبويَّة امتزجت بوصف العشق البدويّ ، الذي تقنّع فيه الشوق للرسول ﷺ ، بستر العاشق العذريّ .

وتأتي المقدِّمات في المديح النبوي حاملةً عناصر بدويَّة متعدِّدة ومنها قصيدة لأبي زكريا البرجي جمع فيها بين النسيب العذري ، ووصف الرِّحلة والشيب ، يقول في أوَّلها[2] :

أصغى إلى الوجد لـمَّـا جـدَّ عاتبُـه ... صـبٌّ لـه شـغلٌ عمَّـن يعاتبُـه

وهو في هذه المقدِّمة ينحى منحى العّذريين في نسيبهم ويردد صوراً وألفاظاً مُستلهمةً من بيئةِ البادية وأجوائِها ، ومنها (شرقي الحمى) و (أُهيل ودادي) و (الشِّعب) ، يقول منها[3] :

لله عصـرٌ بشـرقي الحمـى سمحـتْ ... أوقاتُـه لـو عَـادَ ذاهبُـه

يا جـيرةً أودعُـوا إذ ودَّعـوا حُرَقـاً ... يصلى بـهـا من حميمِ القلـبِ ذائبُـه

يا هـل تُـرى تجمـعُ الأيـامُ ألفتَنَـا ... كعهـدنا أو يـردَّ القلـبَ سـالبُه

ويـا أهيـل ودادي والنَّـوى قـذفٌ ... والقربُ قد أبـهـمـت دوني مذاهبُـه

وفيها يذكر ربوعَ الحمى ويبكي الماضي[4] :

ويا ربـوعَ الحمـى لا زلـتِ ناعمـةً ... يبكي عهودكِ مضـنى الجسـمِ شـاحبُهُ

ويقرن بكاء العهد بشكوى المشيب ، والماضي من أيام اللهو والصبابة ، يقول[5] :

أبكي لعهد الصِّبا والشيبُ يضـحكُ بي ... يا للرجـالِ سـبتْ وجـدي ملاعبُـه

ولن ترى كالـهـوى أشـجاهُ سـالفُه ... ولا كوعـدِ المـنى أحـلاه كاذبُـه

وهـمَّـةُ المـرءِ تُعليـهِ وتُرخصُـهُ ... مَن عـزَّ نفسـاً لقـد عـزَّتْ مطالبُـه

وبكاءُ الشباب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعِ المدحة ، لأن الشيخ يودِّع الصِّبا وما سلف من أيام اللهو والصَّبابة ، ويترك الماضي ليتأهَّب للرحيل ، وهي

---

(١) الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري ، قاسم الحسيني ، ص٧٣ .

(٢-٥) نفح الطيب ، المقّري ، ٦/٧٠ .

مرحلةٌ يقترب فيها الشاعر من ربه ، ويرغب في التطهر الروحي ، ويمهّدُ لذلك بالاستغفار والاسترحام ، والتوسُّل بالشفاعةِ لدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتشوق إلى طيبة ، وهو يتخذ لذلك في القصيدة صورة الرحلة للأماكن المقدَّسةِ التي شهدت عظمة النبوة ، فيدلف على راحلةِ الشوق رحابَ المديح النبوي ، يقول البرجيّ[1] :

في ذمـــة الله ركـــبٌ للعـــلا ركبُـــوا ... ظهـــر السُّـــرى فأجابتـــهم نجائبُـــه

يرمون عرضَ الفلا بالسَّيرِ عن عُـرُضٍ[2] ... طـــيَّ الســـجلِّ إذا مـــا جـــدَّ كاتبُـــهُ

كـــأنَّهم في فـــؤادِ اللَّيـــلِ سـرٌّ هـــوى ... لـــولا الضِّـــرام لمـــا خفَّـــتْ جوانبُـــه

شَدُّوا على لـــهـــبِ الرَّمضاءِ وطـــأتهم ... فغاصَ في لـــجَّـــةِ الظلمـــاءِ راســـبُه

وكلَّفوا اللَّيلِ من طولِ السُّرى شـــططاً ... فخلَّفـــوهُ وقـــد شـــابتْ ذوائبُـــه

حـــتى إذا أبصـــروا الأعـــلامَ ماثلـــةً ... بجانـــبِ الحـــرم المحمـــيِّ جانبُـــه

وقد شكى البرجي في النسيب توديعَ الأحبَّة : (يا جيرةً أودعوا إذا ودَّعوا حُرقاً)[3] ، وبكى عهد الأيام الماضية له معهم : (يبكي عهودك مضنى القلب شاحبه)[4]، وارتبطت هذه الصورة ببكاء الشباب : (أبكي لعهدِ الصِّبا)[5]، وتوديع الرَّكب : (في ذمّةِ الله ركبٌ)[6] ، كما أن الشَّاعر في وصفهِ أيام اللهو والشباب ذكر أنه كانَ لاهياً (يا من لقلبٍ مع الأهواء منعطفٌ)[7]، وأنه[8]:

يسمو إلى طلـــبِ البـــاقي بـــهـــمَّتِه ... والـــنفسُ بالميـــلِ للفـــانِي تطالبُـــهُ

وأراد منازعته هوى النفس ، لأن الباقي العملُ الصالح ، والفاني الدنيا ، ولذلك عندما صوَّر الرَّكب ضمَّن هذا المعنى قوله : (يرمون عَرْض الفلا بالسَّير

---

(١) نفح الطيب ، المقّري ، ٦/٧١ .

(٢) عُرُض : جمع عَرَض ، وهو متاع الدنيا وحطامها ، انظر : اللّسان ، مادة (عرض).

(٣،٤،٥) نفح الطيب ، المقّري ، ٦/٧٠ .

(٦) المصدر السَّابق ، ٦/٧١ .

(٧،٨) المصدر السَّابق ، ٦/٧٠ .

عن عُرُضٍ)[1] ، وأنهم أمُّوا الرسول الكريم ﷺ الذي في زيارته تكفيرٌ عن الذنب ، ولذلك قال في الوصول إلى طيبة[2] :

بحيثُ يأمنُ من مولاهُ خائفُهُ ... من ذنبهِ وينالُ القصدَ راغبُه

وقد وجدنا أن البداوة في المديح النبوي تكثر في المقدِّمات التي يقوم فيها الشعراء بتصوير مشاعرهم ودواخلهم في صورةِ نسيبٍ ، أو رحلةٍ ، أو ركب ، وغير ذلك من عناصر بدويَّة ، ممَّا يحمِّله الشاعرُ أشواقَه ولواعجَه ، وقد تقتصر القصيدة كلُّها على هذا الوصف الذي يمضي به الشاعر إلى الإناخة في حضرة الرسول ﷺ ، أو يودِّع الركب إليه ، وما إلى ذلك ، كما قد تجتمع عناصر تقليدية عدة في مقدِّمة المديح النبوي ، ومن ذلك قصيدة مدح نبويَّة لابن زُمْرُك جمع فيها بين عناصر بدويَّة عدَّة ، من نسيب ورحلة وطلل وما إلى ذلك ، يقول في أوَّلها[3] :

لعلَّ الصَّبا إن صافحت روضَ نعمانِ ... تؤدي أمانَ القلبِ عن ظبيةِ البانِ

ومن ذكر الصَّبا في أول القصيدة ، يسري في دواخلها النغم العذري ، فيصف الشاعر الأرواح التي استودعها سرَّ الهوى : (وما حال من يستودعُ الريحَ سرَّه)[4]، والطيف الذي ينام ليراه : (وكالطيفِ استقريهِ في سنةِ الكَرى) [5]، ونجد[6] :

أسائلُ عن نجدٍ ومرمى صبابتي ... ملاعبَ غزلانِ الصَّريمِ بنعمانِ

وأبدي إذا ريحُ الشَّمال تنفَّستْ ... شمائلَ مرتاحِ المعاطفِ نشوانِ

عُرفتُ بهذا الحبِّ لم أدرِ سلوةً ... وأنَّى لمسلوبِ الفؤادِ بسلوانِ

وتكثر في القصيدة اللمحاتُ العذريَّة ومنها : ذكر البرق والغمام الذي يهيج الشوق[7]:

(١،٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٦/٧١ .

(٣-٧) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٩٣ .

لي اللهُ إمَّا أومضَ البرقُ في الدُّجى أقلّبُ تحتَ اللَّيلِ مقلةَ وسنانِ
وإن سلَّ من غمدِ الغمامِ حسامَه برى كبدي الشوقُ الملمُّ وأضناني

ومنها أيضاً مراعاة النجوم[1] :

أسامرُ نجمَ الأفقِ حتى كأنَّما وقد سَدَلَ الليلُ الرُّواقَ حليفانِ

والدموع :(ويرسلُ صوبَ القطر من فيض أدمعي)[2]، ثم يقف على الطلل ، فيصف من عناصره البدويَّة الذكرى التي يهيجها رؤية الخراب بعد العمار ، وإنكارَ العين لها مع معرفةِ القلب إيَّاها ، وسفحَ الدموع ، يقول[3]:

وضاعفَ وجدي رسمُ دارٍ عهدتُها مطالعُ شهبٍ أو مراتِعُ غزلانِ
على حينِ شربُ الوصلِ غيرُ مصرَّدٍ[4] وصفُو اللَّيالي لم يكدَّرْ بهجرانِ
لئن أنكرت عيني الطلولَ فإنَّها تَمتُّ إلى قلبي بذكرٍ وعرفانِ
ولم أرَ مثلَ الدمعِ في عرصاتِها سقى تربَها حينَ استهلَّ وأظمانى

ومن الوقوف على الطلل يصف ابن زُمْرُك ـ على العادة البدويَّة ـ ارتحال الظعائن والحمول ، وهو ركبٌ سرى مسرعاً بليل وكأنَّ الريح مقيَّدة بأرسان إبله ، يقول[5] :

ومِمَّا شَجَانِي أن سرى الركبُ موهنـاً[6] تُقادُ به هوجُ[7] الرِّياح بأرسانِ

(١-٣) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٩٤ .
(٤) مصرَّدٍ : منتهٍ ، انظر : اللِّسان ، مادة (صرد) .
(٥) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٩٤ .
(٦) الموهن : نحو من نصف الليل ، وقيل الوهن ساعة تمضي من الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (وهن) .
(٧) هوج : الريح الهوجاء الشديدة الهبوب ، والهوجاء أيضاً من صفة الناقة السريعة لا تتعاهد مواطن أنسامها من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (هوج).

غوارب[1] في بحرِ السَّرابِ تخالُها وقد سبحت فيه مواخرَ[2] غربانِ[3]

فذكر أنَّ هذه الحمول تغرب وتبعد ، وشبَّهها في السراب بدلاءٍ عظيمة في الماء ، وجانس في اللفظ بين (غرب) و (غربان) ، ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الرَّواحل ، فهي (نضو) (كوماء) (عوجاء) (مرنان) أي ترفع صوت الحنين ، فقال[4] :

على كلِّ نضوٍ[5] مثله فكأنما رمى منهما صدرَ المفازةِ سهمانِ
ومن زاجرٍ كوماءَ[6] مخطفةَ الحشَا[7] توسَّدُ منها فوقَ عوجاءَ[8] مرنانِ[9]

وإذا تأملنا الصورة هنا وجدنا أن ابن زُمْرُك ذكر من صفة الرواحل ما هي عليه في الصُّورة البدويَّة عادة ، من وصف ضخامتها ، وأنَّها ضامرة ، وأنها مُعوجَّة من تعب السير ، وأنها مهزولة وأنها تُزجر ، وهو ما اختلف به عن وصف الرواحل في معظم الشِّعر الذي يتناول الرحلة البدويَّة النبويَّة إذ لم يكونوا يصفون منها ـ في معظم الصور ـ إلاَّ سرعتها وشوقَها ، لأنهم أرادوا رحلة روحيَّة سموا بها عن الوصف بالتعب والهزال ، فألبسوا الناقة من أنفسهم

---

(١) غوارب : من الغربة وهي النوى والبعد ، وغرَّب بعدُ ، والغربة النزوح عن الوطن ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرب).

(٢) مواخر : جوارٍ تشق الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (مخر).

(٣) غربان : الغرب الدَّلو العظيمة التي تتخذ من جلد الثور ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرب) .

(٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٩٤ .

(٥) النضو : البعير المهزول ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .

(٦) كوماء : ضخمة السنام ، انظر : اللِّسان ، مادة (كوم) .

(٧) مخطفة الحشا : ضامرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطف) .

(٨) عوجاء : منعطفة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عوج) .

(٩) مرنان : الرنة صوت فيه فرح أو حزن ، والإرنان صوت الشهيق مع البكاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (رنن) .

في الشوق للنبي ﷺ ، وهو ما اختلف به ابن زُمْرُك عنهم هنا ، الذي وصف رحلة ركب سروا بليل ، لم يجعلهم متوحّدين معها في النفسيَّة التي تجعلها على ذات المستوى من الشوق ، وقد جاء ابن زُمْرُك بالقصيدة على البناء التقليدي الجاهلي الغالب الذي يجمع فيه الشاعر بين عناصر بدويَّة عدة ، من نسيب وطلل ورحلة ، وسعى إلى التخلُّص إلى المديح ، بوصف الرَّكب ، فقال[1] :

نشاوى غرامٍ يستميلُ رؤوسَهم ... من النَّومِ والشَّوقِ المبرح سكرانِ
أجابوا نداءَ البينِ طوعَ غرامهم ... وقد تبلغُ الأوطارَ فرقة أوطانِ
يؤمُّون من قبرِ الشَّفيع مثابةً ... تطلَّع منها جنَّةٌ ذاتُ أفنانِ

وقد تختلط البداوة في المدائح النبويَّة الأندلسيَّة بمعانٍ أخرى ، ففي قصيدةِ مدح نبويَّة لابن خاتمة بدأها بوصف (خمرٍ) أسماها (خمر الرّضا) فقال[2]:

أدر كؤوسَ الرِّضا ناراً على عَلَمِ ... لا خير في لذَّة بتَّا لمكتتَمِ
ولتجْلُهَا بنتُ دَنٍّ عمرها عمري ... تستدرجُ العقلَ فعل الشيب باللممِ

ووصف في ثمانيةِ أبياتٍ عتق هذه الخمر ولونها ، وشاربها ، والانتشاء بها ، ثم وصف الغمام والحمام ، وصفاً أندلسيًّا[3] :

وساجلتْ أدمعُ السّحبِ الحمامَ بكىً ... على الرياضِ فأضحى جدُّ مبتسِمِ
فسَلْ أزاهيرَ روضِ الحسنِ غِبَّ ندى ... هل نبَّهت وقعاتُ الطلِّ عين عَمِ

ووصفُ الخمرِ في مقدِّمات المديح النبوي لم يكن جديداً ، فقد وصف كعبُ بن زهير الخمر عندما شبه به ريق سعاد ، فقال[4] :

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٩٤ .
(٢،٣) ديوان ابن خاتمة ، ص٣٧ .
(٤) شرح ديوان كعب بن زهير ، ص٧ .

شُجَّت[1] بذي شبمٍ[2] من ماءِ محنيــةٍ[3]   صافٍ بأبطحَ[4] أضحى وهو مشــمولُ[5]
تجلو الرياحُ القَذَى[6] عنــه وأفرطــهُ[7]   من صوبِ[8] ساريةٍ[9] بيضٌ يعاليــلُ[10]

وكذلك شبَّه حسان بن ثابت ريق شعثاءَ بها في مقدِّمة مدحه للرسول ﷺ ، فقال[11] :

كأنَّ ســبيئةً[12] مــن بيــتِ رأسٍ[13]   يكــونُ مزاجهــا عســلٌ ومــاءُ
على أنيابــهــا ، أو طعْــمَ غــضٍّ[14]   مــن التُّفــاحِ هصَّــرهُ[15] اجتنــاء

والفرق في الصُّورة هو ؛ أن كعباً وحسَّاناً شبّها بالخمر ريق امرأةٍ ممَّا هو معروفٌ متوارثٌ في الشعر الجاهلي البدويّ ، ولكن ابن خاتمة وصف خمراً

---

(١) شجَّت : مزجت وخلطت ، انظر : اللِّسان ، مادة (شجج) .
(٢) ذي شبم : ذي بَرَد ، انظر : اللِّسان ، مادة (شبم) .
(٣) المحنية : منعطف الوادي ، وخصّ ماء المحنية لأنه يكون أصفى وأبرد ، انظر : اللِّسان ، مادة (حنا) .
(٤) الأبطح : مسيل فيه دقاق الحصى ، انظر : اللِّسان ، مادة (بطح) .
(٥) مشمول : أي ضربته الشمال فبرد ، ومنه خمر مشمولة باردة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شمل) .
(٦) القذى : ما على الشراب من شيء يسقط فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قذي) .
(٧) أفرطه : ملأه ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرط) .
(٨) الصَّوب : نزول المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوب) .
(٩) السارية : السحابة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا) .
(١٠) يعاليل : المطر بعد المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (علل) .
(١١) ديوان حسان بن ثابت ، ص١١ .
(١٢) السبيئة : الخمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبأ) .
(١٣) بيت رأس : اسم قرية بالشام كانت تباع فيها الخمور ، انظر : اللِّسان ، مادة (رأس).
(١٤) غضّ : طريّ ناعم ، انظر : اللِّسان ، مادة (غضض) .
(١٥) هصّره : جذبه وأماله ، انظر : اللِّسان ، مادة (هصر) .
وقد اعتذر أبو العلاء المعرّي لحسان بن ثابت في رسالةِ الغفران ، بأن الرسول ﷺ كان سمحاً سهلاً ، وأنه أي حسان لم يشرب خمراً ، وقد يكون وصف ريق امرأة كانت حلاً له ، انظر : رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، ص١١١ .

أخرى ، هي خمر الرِّضا ، فشبّه حسيًا بمعنويّ في نعتٍ لنفس مشربةٍ بالإيمان ، تحلّق في انتشاء روحي ، وهو ما أضافه الشعراء للمدحة النبوية القديمة ، ممّا وجدنا له مشابهاً عند شعراء مدّاحين آخرين ، مثل ابن الفارض الذي انصرف إلى (التزهّد والخلوة والعبادة) (١) ، وعرف بـ (التصوُّف) (٢) ، ومن ذلك قصيدته التي جعلها كلّها ـ وقد بلغت أربعين بيتاً ـ في وصف خمر روحيّ ، وأوّلها(٣) :

شربنا على ذكرِ الحبيبِ مُدامةً سكرنا بها من قبل أن يُخلقَ الكرمُ

((فقد تخلّلت شعر المدائح النبويَّة لمحاتٌ صوفيّة تنبي عن شفافية روحِ قائلها وانتماءٍ إلى حياة التصوُّف أو ميل إليها ، وربما بدا ذلك في صورة

---

(١) ديوان ابن الفارض ، تحقيق : هيثم هلال ، دار المعرفة ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م ، من مقدّمة الديوان .

(٢) ديوان ابن الفارض ، من المقدّمة ، ص٦ .

واختلف في أصل التسمية ، فقيل : إن الصوفي من لبس الصوف لأن لابسه زهد في الدنيا وما فيها من متع ، وقيل إن أصلها من أهل الصفّة وهم فقراء المسلمين في الصدر الأول الإسلامي ، انقطعوا للعبادة ، وعاشوا على الصدقات لا يسألون الناس ، وقيل إن ذلك يرجع إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون وأن صاحبه قد وهبته أمه في خدمة البيت الحرام ، واسمه (الغوث بن بركان) انقطع فيها للعبادة وخدمة الكعبة ، وعنه أخذت قريش فكرة كسوة الكعبة وأطلق عليه (صوفي) وعرف بهذا اللقب طول حياته ، وقيل : إن التصوف مشتق من لفظ (الصفاء الذي يعمر قلوب الزهاد) ، والصوفي من صفا قلبه لله تعالى وكلمة (تصوف) من الكلمات الغامضة التي تعدّدت تعريفاتها ومفاهيمها ، وقد يجنح التصوّف إلى طرقٍ شتّى ينكرها الإسلام ولكنه في أصله هو : القرب من الله تعالى ، والزهد من الدنيا ، وما في أيدي الناس ، وحب الله تعالى ممّا هو أساس العقيدة الإسلامية .

انظر : المذاهب الصوفية ومدارسها ، عبد الكريم عبد الغني قاسم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط . الأولى ، ١٩٩٩م ، ص٢١ – ٣٨ .

(٣) ديوان ابن الفارض ، ص١٢١ .

مقدِّماتٍ زهديَّة أو مصطلحات صوفية ..))[1]، وهذه اللمحات لم تكن خاصَّة بالأندلسيين وإنما عمَّت غيرهم من الشعراء في الأقطار المختلفة ، وكانت من الإضافات الجديدة على قصائد المدح النبوي والشعر الديني إلاَّ أنَّ ((تأثير النزعات الصوفية ـ مع التسليم بوجوده في المدائح النبويَّة ـ ليس بالعميق ولا الواسع ، وذلك على الرغم من الصلة الوثيقة بين الغرضين في الموضوع والنشأة))[2] ، وهذه الطريقة في المدائح النبويَّة اتخذها الشعراء للتدليل على مشاعر السعادة بالإيمان والإحساس بفيض غريب من الانتشاء لم يجدوا له ما يماثله سوى وصف الخمر ، وفعلها بالنفوس ، وجَعْلِهَا مقابلاً لهذا الإحساس بالمحبّة لله تعالى ، وللرسول عليه أفضل الصلاةِ وأتم التسليم ((ويظلّ أوضح جامع معنوي بين شعر المدائح ، وفن الشعر الصوفي هو التعبير عن المحبَّة))[3] ، وابن خاتمة بعد أن بدأ بوصف الخمر ، استطردَ إلى وصف الرياض والزهر ، وصفاً أندلسيًّا ، ثم انعطف بالصورة من الحديث الأندلسي الحضري إلى الحديث البدويّ ، فذكر الحيَّ والربع والمعهد ، والخيام ، والمطيّ ، فقال[4] :

يا وادي الحيِّ والأمواهُ[5] ثاعبةٌ[6] واحرَّ قلبي لذاكَ المورِدِ الشَّبِمِ[7]

---

(١) القصيدة الأندلسيَّة ، دكتور عبد الحميد عبد الله الهرّامة ، ٣٦١/١ .

(٢) المرجع السَّابق ، ٣٦٢/١ .

(٣) المرجع السَّابق ، ٣٦٣/١ .

(٤) ديوان ابن خاتمة ، ص٣٧ .

(٥) الأمواه : جمع ماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (موه) .

(٦) ثاعبةٌ : متفجرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثعب) .

(٧) الشبم : البارد ، انظر : اللِّسان ، مادة (شبم) .

وقوله : واحرّ قلبي لذاك المورد الشبمِ ، نظر فيه إلى قول المتنبي لسيف الدولة :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

انظر : ديوان المتنبي ، ٨٠/٤ .

يا هــل يــبلغني وخــدُ المطــيِّ علــى　　شحطِ المــزارِ إلى ربــعٍ بــذي ســلمِ
لمعهــدٍ طالمــا حــلَّ القلــوبُ بـــهِ　　مخــيِّمينَ وبـــانُوا عـــن جســومِهمِ
لعمــدةِ الــدِّين والــدنيا وقطبــهما　　ومنتــهى الشــرفِ الأصــليِّ والكــرمِ

وابن خاتمة بهذه الطريقة في الانعطافِ نحو البداوة ، دلَّ بالشعر على أن المكان الذي يهوي إليه قلبه وهو (يثرب) ارتبط بالبداوة في الصُّورة القديمة لهذا الشعر ، ولذا فإنه حال وصفه الشوق إلى الرسول ﷺ ، أبان عن هذا الوصف بطريقة بدويَّة ، مما يحاكي به ما كان عليه الشّعر أيَّام الرسول ﷺ ، فهو بهذا الانعطاف يتقرَّب في طريقة القول من الممدوح ﷺ ، عدا عن التقرّب الروحي الذي ينشده بهذا المدح ، ولذا فهو حين وصف الحيَّ ، ربطَ هذا الوصف بالمياه وتدفقها وبردها ، والشوق إلى شربةٍ منها ، بما أراد به وصف الظمأ الروحي للزيارة ، أو لما يعنيه الرسول عليه الصلاة والسلام من دين ، وحماية ، ومهابةٍ للدولة الإسلاميَّة ، ولذا وصف وخد العيسِ في الفيافي ، والقوم الذين أنحلهم الشوق إلى يثرب ، فقال(١) :

يا حادي العيسِ نحو القومِ مرتــهــنــاً　　يرمي به الشوقُ من غــورٍ إلى تــهــمِ
رفقــاً بنــا في بقايــا أنفــسٍ خفيــت　　عــن المنايــا فلــم تمتــزْ مــن العــدمِ

وقرنَ هذا الخطاب للحادي بالقسمِ على أن ينضي جسده ، ويذرف دمعه ، ويُسهر جفنه حتى يصل إلى ثرى طيبة ، قال(٢) :

لأُلحِفَ الجســمَ ثــوبَ الســقمِ ممتــهناً　　وأذرفَ العينَ صوبَ الأدمــعِ السُّــجم
وأُشربَ الوجدَ قلبي والجــوى كبــدي　　والسُّهدَ جفني وأنواعَ الشــجونِ دمــي
إن لم أحـــطَّ ركـــابي في أبـــرِّ ثـــرى　　حتّـــى أُعفّـــر فيـــه وجـــنتي وفمـــي

وهكذا . . . وجدنا أن صور البداوة تكثر في شعر المديح النبوي في الأندلس ، في مقدِّمات القصائد ، حيث اتخذ الشعراء من وصف الطّلل البدوي ،

---

(١) ديوان ابن خاتمة ، ص٣٧ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص٣٨ .

والرحلة البدويَّة ، والنسيب البدويّ وغيره ، قوالبَ تعبيريَّة ، وصفوا من خلالها أشواقهم وحبَّهم للرسول ﷺ ، وتوقهم للنجاة من الذنوب والخطايا والفتن والاضطرابات .

وأهم ما يميّز هذه المدائح ، أنها قد تخلو من مدح فعليّ للرسول ﷺ ، وتكتفي بوصف المشاعر الروحيَّة تجاهه عليه الصلاة والسلام ، كما أنه يكثر فيها إضافةً لحشد أسماء أمكنة بدويَّة ، مخاطبةُ الحادي مما قد يكون بديلاً عن خطاب الصاحب في المقدمة الطللية الجاهلية ، ووصف الانتشاء الروحي ، وتوجيه النسيب لغاية أسمى من عذريته المعروفة ، ووصف الرحلة وصفاً يبعد بها عن الأوصاب والمخاوف .

فجاءت الرحلة مجلَّلةً بالروحانية ، والنورانية ، والعواطف السامية ، التي تجعلها رحلة أرواحٍ مشتاقةٍ إلى الخير والإيمان والنُّور الذي يمثله الرسول ﷺ .

وقد كثرت هذه المدائح في الأندلس ، مع تزايد الخطر النصراني ، وجاءت في هذا الشعر على صورة توقٍ بدويَّةٍ ، لعالم طاهرٍ صافٍ نقيّ ، كان في الرسول ﷺ ـ الذي قُدِّر على يديه الخروج من الظلمات إلى النور ـ خلاص أهله ، وأراد الشعراء الأندلسيُّون بهذا المديح له عليه الصلاة والسلام ، أن ينشدوا منه نوراً روحانيًّا هادياً ، يعودُ بهم إلى صفاءِ البدايات .

* * *